

كتابى
حلمى مراد
من الأرض
.. إلى القمر!
وكتب
أخرى
أطلب مع
هذا العدد
مجلة
الصغار
هدية منفصلة
فى ٣٢ صفحة
الرواية التى تنبأ فيها "چول ڤيرن"
منذ ١٠٠ عام بهبوط الإنسان فوق القمر!

كتابى

مجلة شهرية للثقافة العالمية

صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد

الكتاب رقم ١٠٢

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة — تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب — ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة تليفون ٣١٨١٠

ثمن النسخة : ١٥ قرشا

فبراير ١٩٧٠

مطبوعات كتابى

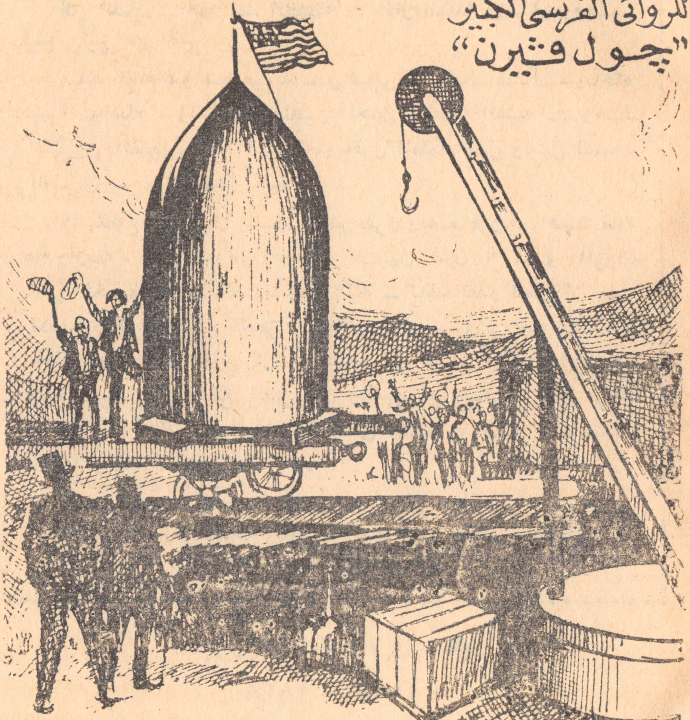
صدر من مجموعة ((مطبوعات كتابى)) حتى الآن :

قصة مدينتين (ديكنز) ـ ذات الثوب الأبيض (كولنز) ـ الخالدون (كارنيجى) ـ الخاطئة (موم) ـ حياة امرأة (جزآن ، موباسان) ـ الخطيئة الأولى وفتاة من الأقاليم (موروافيا) ـ أوديب (سوفوكليس وأندريه جيد) ـ مدام بوفارى (جزآن ، فلوبير) ـ عاشقات فى الخريف و ٢٤ ساعة فى حياة امرأة (زفايج) ـ قلوب ضالة (تاغور) ـ ديكاميرون (بوكاشيو) ـ الظمأ للحب (والتارى) ـ چين اير (٣ أجزاء ، برونتى) ـ فاتنات الرجال (كورجين) ـ رجال ونساء (جوركى) ـ الثأر للوطن (شتاينبك) ـ فرنسا الجريحة على ضفاف النيل (ديفيز) ـ الابن الضال (بوردو) ـ أسرار الجاسوسية (نيومان) ـ بيللا دونا (٣ أجـزاء ، هتشنز) ـ بوشكين (لامبير) ـ اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ـ قصص من الصين ـ ليالى ((بلزاك)) ـ الالياذة (٣ أجزاء ، هوميروس) ـ قصص من روما (مورافيا) ـ المسبحة (جزآن ، باركلى) ـ سفينة الملذات (ديكوبرا) ـ دم وخمر (تولستوى) ـ تحت ظلال الليلا (مبرورة سامى) ـ أرواح هائمة (موم) ـ القلعة (٣ أجزاء ، كرونن) ـ هل تحبين برامس ؟ (ساجان) ـ مرتفعات ويذرنج (٣ أجـزاء ، برونتى) مدموازيل جوفر (جزآن ، بريفو) ـ العذراء المفتونة (باتاى) ـ مياه الربيع (جزآن ، ترجنيف) ـ الضحك فى الظلام (نابوكوف) ـ ماريا ايفانوفنا (بوشكين) ـ لوكريشيا بورجيا (هاسليب) ـ كلهم أبنائى ، ومن فوق الجسر (ارثر ميللر) ـ نينوتشكا (جزآن ، دستويفسكى) ـ السحب الرائعة (ساجان) ـ الآلهى عطشى (جزآن ، أناتول فرانس) ـ قصص من تولستوى ـ مارى ستيوارت (شيللر) ـ ألف ليلة وليلة الهندية ـ فاتنة الكونفو (ميرسيه) ـ قاتل بلا أجر (أوجين يونسكو) ـ قصص من ايبانيز (بلاسكو ايبانيز) ـ الطريق الى بئر سبع (جزآن ، ايثيل مانين) ـ انا كارنينا (تولستوى) ـ دكتور جيفاجو (جزآن كبيران ، باسترناك) .

قد تجد نسخة مما ينقصك من هذه المجموعة ، بادارة التحرير :
٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) بالقرب من ميدان التوفيقية ،
شقة ١١١ ، تليفون ٤٦٤٧٥

من الأرض.. إلى القمر!

للروائي الفرنسي الكبير
"چول ڤيرن"



DE LA TERRE A LA LUNE

PAR : JULES VERNE

عرض وتلخيص : ميشيل تكلا

بين خيال الروائى .. وواقع العلم

ظل القمر ــ منذ بدء الخليقة ــ مثار انبهار الانسان ومحور قسط كبير من تفكيره ..

عبده أقوام ، واستأنس به ــ فى ليالى السهاد ــ عشاق ، وناجاه شعراء وأدباء ، واستلهمه فنانون أجمل التحف الفنية .. وحلم الكثيرون بالصعود اليه ! .. وظلت عقول العلماء تعمل وتعمل لتسخير العلم فى سبيل الوصول اليه !

واستطاع الأدب ان يسبق العلم بقرن وبضع قرن .. فمنذ مائة عام وأربعة ، تخيل الروائى الفرنسى « جول فيرن » ــ فى الرواية التى نلخصها لك فى الصفحات التالية ــ كيف يقدر للعلم ان ييسر للانسان الوصول الى القمر .. وكان اعجب ما فى روايته هذه ، ان خياله أوشك أن يطابق كل ما حدث فى صيف عام « ١٩٦٩ » ، عندما هبط على سطح القمر أول رائدين من البشر ، خلال رحلة « أبوللو ١١ » .. وهى الرحلة التى تبعتها فى شهر (نوفمبر) ١٩٦٩ رحلة « أبللو ١٢ » ..

وفى الصفحات التالية ، نلخص لك رواية جول فيرن « من الارض الى القمر » ، ثم نردفها بتعقيب يبين مدى التقارب المذهل بين تنبؤاته وبين ما حدث فعلا ، بعد اكثر من قرن كامل من الزمن !

« جول فيرن » .. فى سطور

(١٨٢٨ ــ ١٩٠٥)

• كتب « جول فيرن » ــ خلال حياته الطويلة المثمرة (٧٧ عاما) ــ ٨٠ قصة طويلة أو رواية ، الى جانب كتبه غير الروائية ، التى منها : « الجغرافيا المصورة لفرنسا ومستعمراتها » (١٨٦٨) ، « تاريخ الرحلات الكبرى والرحالة الكبار » (١٨٧٨) ، « كريستوف كولمب » (١٨٨٣) .. كما أشرف ، أو شارك فى الاشراف ، على ١٥ مسرحية ..



● بدأت شهرته تعم ، وتلفت اليه الانظار ، فى الاعوام من ١٨٦٣ الى ١٨٦٥ ، حين نشر رواياته الثلاث الاولى ، والكبرى : ٥ أسابيع فى منطاد ، رحلة الى جوف الأرض ، من الارض الى القمر .

● عاش « جول فيرن » فى القرن الذى أنجب كل هؤلاء العباقرة من الروائيين : بلزاك ، ديكنز ، ديماس الاب ، تولستوى ، دستويفسكى ، ترجنيف ، فلوبير ، ستندال ، جورج أليوت ، زولا .. لكنه يقارن ، أكثر ما يقارن - فى عبقريته وقوة خياله - ب « ديماس الاب » ، مع فارق واحد : فبينما سلط الاول اشعاع خياله على « الماضى » يستخرج منه أروع الروايات ، سلط الثانى هذا الاشعاع على المستقبل ، يستنبئه أعجب النبوءات ، التى تحقق الكثير منها - ويا للعجب ! - بعد نصف قرن من نبوءاته ، وأحيانا بعد قرن كامل !

● والقارىء لروايات « جول فيرن » يعجب لهذه الطاقة الخارقة من الخيال وقوة الابتكار عند هذا « الساحر » الذى عكف (طوال خمسين عاما كاملة !) على تطويع الكشوف العلمية غير المنظورة فى عصره ، لمجهوده اليومى فى الخلق والابتكار ، على صفحات رواياته العديدة الباهرة . ولكن هذا لا يعنى أنه قدم الوسائل التكنولوجية التى تسمح بتحقيق أحلامه « المستقبلية » .. فهو ليس عالما هندسيا مثل « اديسون » مثلا ، ولا ميتافيزيقيا يحمل رواد فضائه روح « باسكال » فى رحلاتهم الكونية ، ولا عالما فى الاجتماع ، يضمن روايته ذات الطابع التاريخى « ميشيل ستروجوف » تحليلا خفيا للقوى الثورية فى روسيا القرن التاسع عشر .. وانما تقييمه الصحيح أنه يعد « شاعر » القرن التاسع عشر ، أكثر منه « مهندس » القرن العشرين !

● وقد ولد « جول فيرن » فى مدينة (نانت) بفرنسا ، فى ٨ فبراير عام ١٨٢٨ . وكان جده لأبيه قاضيا ، فاتجه أبوه « بيير فيرن » فى عام ١٨٢٥ لدراسة القانون ، وفى عام ١٨٢٧ تزوج من أمه « صوفى ألوت دى لا فوى » ، التى تنتمى الى أسرة من رجال الملاحة وصناع السفن . ورزق الزوجان ولدين : « جول » ، ثم « بول » (١٨٢٩ - ١٨٩٧) ، و ٣ بنات .

● وفى سن السادسة بدأ يتلقى تعليمه ، وفى سن ١١ سنة أبحر خلسة الى الهند على سفينة صغيرة ، لكن أباه لحق به فى (بامبوف) ، حيث اعترف بأنه سافر ليشترى لابنة عمه « كارولين » عقدا من المرجان !.. فلما عنفه والداه بشدة وعد بالاقلاع عن السفر مدى الحياة « الا فى الأحلام » !.. وفى سن ١٦ التحق بمدرسة الليسيه فى (نانت) حيث أتم تعليمه حتى حصل على البكالوريا وبدأ دراسة القانون كأبيه .. دون أن ينسى حبه لابنة عمه « كارولين » ، حتى تزوجت فى عام ١٨٤٧ ، فأدركه اليأس ...

● وخلال تلك السنوات بدأ يكتب أشعارا غنائية ، ثم وضع مسرحية شعرية رفض مسرح العرائس تمثيلها ، فحصل على اذن من أبيه باكمال دراسة القانون فى باريس ، حيث الحركة المسرحية فى قمتها . وفى العاصمة أقام فى غرفة مفروشة مع زميل ، كان يتبادل معه سترة السهرة الوحيدة لديهما ، ليحضر سهرات المسارح .. وصام عن الطعام ٣ أيام ليشترى مسرحيات شكسبير !.. واستمر فى الكتابة ، وتعرف ب « ديماس الاب » ، الذى أوحى اليه بفكرة ٣ مسرحيات ، مثلت احداها فى « المسرح التاريخى » فى ١٢ يونيه ١٨٥٠ ، لمدة ١٢ ليلة !.. ثم مثلت فى مسقط رأسه (نانت) !.. وأغراه النجاح فكتب مسرحيتين آخريين ، لم تمثلا .

● وأنهى دراسة القانون فى ١٨٥٠ ، لكنه رفض ممارسته ، مؤثرا مزاولة هوايته المفضلة : الأدب .. مستعينا على المعيشة باعطاء الدروس الخاصة . وفى ١٨٥٢ نشر أول قصتين له ، هما (السفن الأولى للبحرية المكسيكية) و (رحلة فى منطاد) ، ثم أتبعهما بقصته الطويلة الأولى ، التاريخية العاطفية « مارتان باز » . وفى العام التالى مثلت له « أوبريت » من فصل واحد . ثم عكف على التأليف فى مسكنه الصغير بشارع (بون نوفيل) ، فنشرت له روايتا : السيد زاكاريوس (١٨٥٤) ، شتاء فوق الثلوج (١٨٥٥) .

● وفى ١٠ يناير ١٨٥٧ تزوج من « اونورين آن هيبيه موريل » ، وكانت أرملة فى سن ٢٦ ، ولها ابنتان من زوجها الأول . ثم انتقل للاقامة فى شارع مونمارتر ، وتتابعت كتبه عن رحلاته : الى انجلترا واسكتلندا (١٨٥٩) ، والنرويج وسكندنافيا (١٨٦١) . وفى ٣ أغسطس ١٨٦١ رزق بطفله الوحيد الذى لم يرزق سواه : « ميشيل فيرن » . وفى العام التالى قدم روايته الجديدة (٥ أسابيع فى منطاد) الى الناشر « هيتزيل » ، فتعاقد معه على نشر كتبه لعشرين عاما تالية . وحقق الكتاب نجاحا ساحقا ، فى فرنسا والخارج ، فبدأ نجمه فى التألق ، وأشركه الناشر فى انشاء مجلة

(البقية صفحة ١٦٨)

نادى السلاح

● **اثناء** الحرب الفيدرالية فى الولايات المتحدة الامريكية ، تأسس فى بلدة (بالتيمور) ـ بولاية ماريلاند ـ ناد اكتسب شهرة ونفوذا ، أطلق عليه « نادى السلاح » .. وكان يضم مجموعة نادرة من العسكريين المتقاعدين ، الذين كانت لهم صولات وجولات فى المعارك وفنون الحرب ، وان لم يتخرج معظمهم فى الكليات الحربية .. واستطاعوا بقدرتهم وكفاءتهم ان يحققوا انتصارات عظيمة ..

والحق ان العسكريين الأمريكيين تفوقوا على اقرانهم الأوربيين فى علوم الفلك ورصد الكواكب ، كما بلغت أسلحتهم من الكمال درجة رفيعة لم يبلغها سواهم .. وقد لا يثير هذا دهشة ما ، اذا عرفنا أن « اليانكيز » كانوا ميكانيكيين بفطرتهم ، ومهندسين أفذاذا بالسليقة .. وكانوا مغرمين بصنع المدافع الضخمة طويلة المدى ، وقد قويت المنافسة بين الشماليين منهم والجنوبيين ابان الحرب الفيدرالية ، التى استخدمت فيها الأسلحة الرهيبة الفتاكة ، فتطور علم السلاح تطورا سريعا عندهم .

وغريب أمر الأمريكيين !.. فعندما تختمر فكرة فى راس أحدهم ، يبحث فى الحال عن أمريكى آخر يشاركه تنفيذها .. واذا اجتمع ثلاثة بادروا الى تعيين واحد منهم رئيسا ، وأصبح الآخران سكرتيرين .. واذا كانوا أربعة ، فسرعان ما ينشئون شركة ، أما اذا كانوا خمسة فانهم يؤسسون ناديا ..

وهكذا أسس نادى السلاح ، وبعد شهر واحد بلغ أعضاؤه ١٨٣٣ عضوا عاملا ، و ٣٠٥٧١ عضوا منتسبا .. وكان شرطا على كل راغب فى الانضمام ، أن يكون على عام

ودراية بمختلف أنواع الأسلحة .. وعن طريق النادى حقق عدد كبير من الأعضاء عدة مخترعات لها أهميتها ، فاخترع بعضهم صواريخ فضائية ، وصمم بعض آخر مركبات فضاء كذلك ، حتى بدت الأسلحة الأوربية بدائية أمام الأسلحة الأمريكية .. وقد فتكت هذه الأسلحة بعدد كبير من الثوار الجنوبيين ، ووضعت حدا للحرب الضروس .

***

ولكن عددا من أعضاء نادى السلاح ، ظلوا — برغم انتهاء الحرب — يحلمون بالمدافع والقنابل ، ويقضون الوقت فى وضع تصميمات يعرضونها على جدران النادى ، أو يتركونها مبعثرة فى قاعاته ، وليس الى تنفيذها من سبيل ، لما كان يتطلبه ذلك من مال ، ولأن الحرب — التى يمكن أن تختبر فيها هذه الأسلحة الرهيبة — كانت قد انتهت .

هكذا كان العسكريون المحترفون يقضون أوقاتهم فى النادى ، يتذاكرون أمجاد الحرب ، ويتندرون بقصص البطولة ، ويرتقبون الفرص لأعمال خارقة لم يأتها انسان من قبل .. ألا يمكن لهذه الصواريخ القوية أن تنقلهم — مثلا — الى الفضاء الخارجى .. الى القمر أو النجوم أو الكواكب فى يوم قريب ؟ .. وهكذا كان السفر فى الفضاء يستهويهم ، فيحلمون به .

وذات ليلة ، جلس ثلاثة من أعضاء النادى ، وقد سيطر عليهم الحزن والشرود .. وأخيرا ، تململ أحدهم — وكان يدعى « توم هانتر » — وبدأ يقلب نار المدفأة بساقيه الخشبيتين ، ثم قال :

— شىء محزن حقا .. لا عمل نؤديه ، ولا خلاص من الملل .. أين ذلك الوقت الذى كان صوت المدفع فيه يوقظنا

من أعمق سبات ؟ يا لها من حياة كئيبة !.. أصبحنا عاطلين ، لا عمل لنا بعد أن كسدت صناعة البنادق .. ما لذة الحياة بعد أن ذهبت عنا متعة العمل والكفاح ؟ !

فأشار ثانى الرجال ـ وكان يدعى « بيلسبى » ـ بذراعه الوحيدة نحو صور الأسلحة المعلقة ، وكان قد فقد ذراعا اثر حادث انفجار ، وقال : « هـذه آثارنا تدل علينا ! .. لقد انقضت تلك الأيام !.. أيام كان الناس يتقاطرون فيها على المصانع يطلبون السلاح ، وكان اطراؤهم يلهب حماسنا فنقضى الأيام والليالى أمام البواتق والأفران نشكل الحديد والصلب ونخضعهما لارادتنا ، فنخرج للناس آيات من أنواع السلاح.. ولكن ، سبحان مغير الأحوال ، لقد انصرف الناس الى أعمالهم وتجارتهم ووظائفهم .. أى عصر هذا !.. الناس ـ سامحهم الله ـ يريدون اليوم مزيدا من السيارات الأنيقة .. والجنود ينصرفون الى عمل غير القتال .. والقادة استبدلوا مدافعهم بتجارة القطن .. ان مستقبل أمريكا فى السلاح قد ضاع ! »

وعقب الثالث ـ وكان يدعى « ج.ت.ماستون » ـ على حديث زميله بقوله : « لقـد أطلت التفكير ، وسهرت الليالى لتصميم مدفع ثقيل قد يغير استراتيجية الحرب .. ولكن ، ما من انسان يعاوننى .. أين ذهب محبو السلاح ؟.. اذا كانت الحـرب قد انتهت ، فلا بد لحـرب أخرى أن تنفجر يوما .. ماذا دها الناس ؟.. لقـد كسدت بضاعتنا .. يا للمأساة ! »

وتلفت حوله يستشف وقع كلامه على وجوه الآخرين ..

كان ماستون من أشـهر العلماء ومصممى البنـادق والمدافع .. ذاع صيته لمقدرته الخارقة على انتاج عدد كبير من الأسلحة الفتاكة ، كما كان ضخما عملاقا ، يبدو زميلاه أمامه كأنهما طفلان صغيران .. عاد يقول ، وهو يتراجع فى

مقعده : « يبدو أن سكان العالم الجديد قد وحدوا كلمتهم على عشق السلام أو التعايش السلمى مع جيرانهم من سكان القارات الأخرى !.. لقد تنبأت صحيفتنا « التربيون » بعدة كوارث من جراء الزيادة الفادحة فى السكان ! »

قال هانتر : « هذا ما يدفعنى الى أن أصبح فلاحا .. وأعيش ما بقى لى من أيام على ذكرى البنادق وأشكالها وأحجامها وطلقاتها » .. فأردف بليسبى : « أما أنا ، فلا أستطيع الفلاحة بيد واحدة .. سأصبح مدرسا أتحدث الى تلاميذى عن البنادق ومجدها التليد ! »

فصاح ماستون : « ولكنى يا سادتى ، سأواصل تصميم المدافع ، برغم عقوق الناس وكساد بضاعتنا ، ولو ظلت التصميمات حبيسة مكتبى .. فلست أعرف شيئا سوى تصميم البنادق والمدافع .. ان لسكان العالم القديم أفكارا تقدمية تختلف عما لدينا .. ولن يعترفوا بخبرتنا العسكرية وقوة مدافعنا الا اذا رأوها بأنفسهم .. **ان أمامنا فرصة نادرة ، هى تجربة الصواريخ .. لن يمتلىء الجو ـ بعد اليوم ـ بطلقات مدافعنا ، ولكن بوسع صواريخنا أن تمرق فيه الى عوالم أخرى .. »**

***

ودخل المكان خادم يحمل ثلاثة خطابات ، قدم لكل واحد منهم خطابا يحمل اسمه .. وفضوا الرسائل فى فضول ، فاذا بها متشابهة :

« بالتيمور فى ٣ أكتوبر :

« يتشرف رئيس نادى السلاح بدعوة زملائه الأعضاء الى اجتماع عاجل ، فى اليوم الخامس من هذا الشهر ، سيعلن فيه نبأ هام ... ـ ايمبى بأربيكان »

محاضرة الرئيس باربيكان

ضاق البهو الكبير فى « نادى السلاح » بالناس ،فى مساء ٥ أكتوبر ، اذ أن الاعلان الذى نشره الرئيس « باربيكان » بشتى وسائل الاعلام ، أوحى لأهل (بالتيمور) جميعا بأن النادى أعد اجتماعا خطيرا .. وكان المقعد الذى أعد للرئيس عبارة عن عربة مدفع استخدمت فى معركة (الطرف الأغر) .. أما المائدة ، فصنعت سيقانها من البنادق القديمة ، وغطى سطحها بقطعة من الصلب شقت من جانب بارجة قديمة مشهورة .. واستوت الى جوارها سبورة ضخمة .

فى الثامنة الا دقيقة واحدة ، أقبل الرئيس « باربيكان » .. كان طويلا ، نحيفا ، فى الأربعين من عمره ، ذا عينين زرقاوين باردتين .. ولم يكن يتكلم الا بقدر معلوم ، ولكنه كان طيب القلب ، استثمر أمواله فى التجارة .. وكان يختلف عن بقية أعضاء النادى ، فى أنه ظل متكامل الأعضاء ، لم يفقد ساقا أو ذراعا .

واتخذ الجميع مقاعدهم ، وبينهم من اضطر الى الوقوف على جانبى القاعة . وساد الصمت ..

وفى تمام الثامنة ، بدأ خطابه .. تحدث عن الكساد الذى أعقب الحرب ، وقال :

« .. اننا لا نحب البطالة .. والعلم لا يمكن أن يقف جامدا .. وقد دعانى هذا الى التفكير فى خطة درستها مرات ومرات .. انكم ولا ريب قد رأيتم القمر ، وهو ـ كما تعلمون ـ كرة فى السماء قطرها ٢١٦٠ ميلا .. »

ورسم على السبورة الكرة الأرضية ، وكتب تحت قطرها ٧٩٢٧ ميلا .. وفى الركن المقابل رسم القمر ، وكتب تحت قطره ٢١٦٠ ميلا ، واستطرد قائلا :

« بوسع جندى ماهر ان يصيب دائرة قطرها بوصتان من مسافة تتراوح بين مائة وثلاثمائة ياردة ، وتستطيع طلقة مدفع من احدى بوارجنا أن تصيب دائرة قطرها بوصتان ، على بعد ميل واحد . ولكن أمامنا الآن كرة قطرها ٢٠٠٠ ميل .. ومن المؤكد أن نادى السلاح يستطيع اصابتها اذا شاء .. »

وسرت بين القوم غمغمة ، ولكنه تجاهلها ، واستأنف قائلا :

« ان القمر بعيد عنا بمقدار ٢٥٣ الفا من الأميال ، فى أقصى نقاط بعده عن الأرض ، أو ــ ان شئنا الدقة ــ هو يبعد عنا بمقدار ٢٥٢ر٧١٠ أميال . ولكنه لا يدور حول الأرض دورة كاملة الاستدارة ، وعندما يقترب مداره من الأرض ، يكون البعد بينه وبينها ٢٢١ر٤٦٣ ميلا فقط .. ومما لا شك فيه أن المسافة بعيدة جدا ، اذا كان على طلقتنا أو مركبتنا الفضائية أن تمرق فى الهواء طيلة الوقت .. ولكن الهواء يقل ويقل كلما ارتفعت الطلقة أو المركبة عن الأرض ، وعلى ارتفاع مائتى ميل ينعدم الهواء تماما ، فيتسنى للطلقة أو المركبة مواصلة رحلتها خلال الفراغ .. »

وصاح أحد الأعضاء : « برغم هذا كله ، فالمسافة بعيدة جدا » .

فالتفت اليه قائلا : « ليست كما تتصور ، فعندما تقطع الطلقة أو المركبة خمسة أسداس المسافة ، يجذبها القمر نحوه ، فتشرع فى الهبوط فوقه . وفى السبعة والثلاثين ألف ميل الأخيرة ، لا تحتاج الطلقة الى قوة دافعة ، لأنها تكون فى حالة هبوط مستمر » .

وساد الحضور صمت غريب ، وقد راحوا يتصورون الهبوط على القمر فى مخيلاتهم . ولكن أحدهم ــ وكان يدعى

الكابتن نيقول – هب واقفا فى نهاية القاعة ، ليبدى رأيا .. كان صغير الجسم ، أحمر الوجه ، مارس صناعة الصلب أثناء الحرب . وكان غريما لباربيكان ، فكلما صنع هذا بندقية يخترق رصاصها أى نوع من الصلب ، صنع « نيقول » نوعا جديدا من الصلب منيعا على طلقات البندقية الجديدة .

قال كابتن نيقول : « لن يبدو الأمر بهذه السهولة ، اذا أمعن الانسان فى تأمله . فلكى تهرب الطلقة من الجاذبية الأرضية ، لا بد أن تنطلق بسرعة سبعة أميال فى الثانية .. فهل هناك جهاز يرسل الطلقة بهذه السرعة ؟ »

فأجاب باربيكان بهدوء : « نعم .. هناك قذيفة أسمها آتوميت .. »

وصاح الكابتن ساخرا : « قذيفة !.. ولكن أين المدفع الذى يطلقها ؟ .. ما من نوع من الصلب يمكن أن يصنع منه مدفع يتحمل قوة هذه القذيفة .. »

– لن يصنع المدفع من الصلب ، فهناك معادن أقوى منه ، وقد صار استخدامها ممكنا بعد الحرب ..

***

ووقف رجل وخط الشيب شعره ، فتكلم بصوت خافت رصين .. كان عالما مرموقا يدعى الدكتور « بيلفاست » تجاوزت دراساته البنادق الى النجوم .. فقال : « وكيف ستعرف أن قذيفتك بلغت القمر ؟ .. ان أكبر « تليسكوب » لا يزيد قطره على عشر أقدام .. »

قال باربيكان : « بل تسع .. ولن يزيد قطر طلقتنا على تسع أقدام .. »

قال الدكتور بيلفاست : « شكرا .. اذا أمكن اطلاق قذيفة كهذه ، فمن الميسور التأكد من سقوطها فوق القمر ، وقد

يتسنى استخدام ضوء باهر للدلالة على ذلك .. ولا أملك الجزم بامكان صناعة مدفع ضخم .. »

ولم تبلغ بقية كلماته الآذان ، اذ نهض نيقول قائلا : **« هلا أخبرنا الرئيس بطول المدفع الذى يطلق قذيفة بهذا الحجم ؟ .. ان طول المدفع عادة ، يعادل قطر القذيفة ٢٥ مرة .. أى أى مدفعك سيبلغ طوله ٢٢٥ قدما ، فيما أرى .. فهل يعتبر هذا الطول مناسبا ؟ »**

ونهض ريتشارد بيلسبى ، فقال : « ٢٢٥ قدما ؟.. لا أظنه طولا كافيا ، فان قذيفة كهذه ستطلق كميات هائلة من الغاز .. والمعروف أن الغاز الذى تطلقه القذيفة العادية يحد من سرعتها .. »

وبدت فى عينى « نيقول » نظرة غريبة ، وهو يتساءل : « ما طول المدفع ؟ »

فأجاب باربيكان بهدوء : « تسعمائة قدم » .

ــ ها !.. تسعمائة قدم ؟.. وكيف يمكن اصديقنا تحريكه لاحكام تصويبه الى القمر ؟

قال العالم المكتهل ، وهو جالس فى مكانه : « لا داعى لتصويبه نحو القمر » .

وكان الرئيس باربيكان ينصت ، دون أن يلفظ بكلمة واحدة ، والسرور يغمره لأن الموضوع استهوى القوم .. ونهض « توم هانتر » الذى كان يود أن يصبح فلاحا ، وكان يقبل فى أوقات فراغه على صيد الطيور ، فقال : « انك لا تطلق بندقيتك على الطائر ، وانما على المكان الذى تقدر أن الطائر سيصل اليه عندما تنطلق القذيفة .. وأظن أن الرئيس باربيكان سيطلق مدفعه على المكان الذى يرى أن القمر سيبلغه فى السماء .. »

وأمن باربيكان على قوله .. وخلال الصمت الذى ران

على المكان ، قال الدكتور بيلفاست :

ـ سيصوب المدفع نحو مكان فى السماء ، يكون فيه القمر على بعد ٢٢١٤٦٣ ميلا من الأرض .. ولكن كم من الوقت تستغرق القذيفة للوصول الى القمر ؟

فأجاب باربيكان : « سألت بعض أصدقاء بجامعة شيكاغو أن يحددوا الرد الصحيح .. لو اندفعت القذيفة طوال الوقت بنفس السرعة التى تترك بها المدفع ، فلن يزيد الوقت على تسع ساعات .. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، فستنطلق القذيفة بتباطؤ ، حتى تقترب من القمر فتزداد سرعتها بفعل جاذبيته حتى تهبط فوقه .. وأظن أن الوقت لن يزيد على ٧٩ ساعة وربع الساعة .. »

وشرع الدكتور بيلفاست يحسب المسافة على وريقة ، بينما ارتفع الضجيج ، اذ أخذ الأعضاء يتكلمون بعضهم الى بعض .. وأخيرا ، نهض نيقول قائلا لباربيكان :

ـ لنفترض أن طول مدفعك ٩٠٠ قدم ، وانه ثابت فى مكانه ، ولا ضرورة لتحريكه . . وانك صوبته نحو نقطة فى السماء ، يبلغها القمر بعد ٧٩ ساعة وربع الساعة ، فهل فكر مستر باربيكان فيما يحدث لقضيب طويل مستقيم ، أمسك به من نهايته ومن وسطه ؟ .. مهما يكن القضيب متينا فلن يبقى مستقيما ، لأن قوة جاذبية الأرض ستجذب الطرف الآخر .. وهذا ما سيحدث للمدفع ، اذ انه سيتقوس .. ولو زدته متانة ، فسيزداد ثقلا ، وبالتالى ستكون درجة انثنائه أكبر .. فكيف يصيب مستر باربيكان القمر بقذيفة من مدفع منثن ؟

ودوت ضحكات من بعض الحاضرين ، بينما غضب آخرون .. وأخيرا ، عاد الصمت ليسمع الجميع صوت دكتور بيلفاست ، وهو يقول « اذا انثنى المدفع بوصة



« باربيكان » رئيس نادى السلاح

واحدة ، فى مسافة قدرها ٢٢١٤٦٣ ميلا ، فان القذيفة تنحرف عدة أميال عن المكان المحدد لسقوطها . . »

وعقب الكابتن نيقول قائلا : « وهكذا تضيع ألوف وألوف من الدولارات ! »

ورد باربيكان : « ولماذا يفترض مستر نيقول أن المدفع سيستند على طرف واحد وعلى وسطه ، مثل مدافع الجيش والسفن ؟ .. سأضع المدفع فى ثغرة فى الأرض ، فترتكز فوهته عليها ، ويظل مستقيما .. »

وارتفع الهرج ، ولكن العالم « ماستون » نهض قائلا : « لقد طرح علينا مستر باربيكان مسألة تدفعنا للعودة الى كتبنا وأوراقنا ، بأمل جديد .. وأنا أعرف صديقى باربيكان جيدا ، وأعتقد أن خطته ممكنة ، ولكن الأمر يحتاج الى مال كثير ، وبوسع الذين ربحوا أموالا طائلة ، من تجارة الأسلحة فى الحرب ، أن يمدونا بالذهب لصناعة مدفع لن يؤذى انسانا ، فليس هناك انسان واحد فى القمر .. »

قال الدكتور بيلفاست : « لا أجزم بهذا .. واذا بلغت قذيفتنا القمر ، أمكننا معرفة الكثير عن جارنا .. فهل استقر الرأى على تنفيذ المشروع ؟ »

ورددت القاعة هتافات التأييد ، الا أن كابتن نيقول ظل صامتا . . وكذلك الدكتور بيلفاست ، الذى قال وهو يغادر القاعة : « لست أفهم كيف يمكننا أن نعرف شيئا عن القمر ، ما لم يذهب اليه انسان داخل كبسولة ! »

الكبسولة

بعد المناقشات التى احتدمت بين الأعضاء ، رأى « باربيكان » ضرورة استشارة الفلكيين ، قبل أن يعكف على الوسائل الميكانيكية .. فأعد مذكرة وافية حول مشروعه ،

ضمنها أسئلة دقيقة ، وأرسلها الى مرصد (كيمبريدج) ، بولاية (ماساشوسيت) التى أنشئت فيها أول جامعة للولايات المتحدة الأمريكية ، والتى اشتهرت — فيما بعد — بمرصدها الكبير الذى يضم مجموعة عظيمة من علماء الفلك .

وبعد يومين ، تلقى ردا جاء فيه أن أعضاء المرصد ناقشوا أسئلته ، ووصلوا الى :

((**السؤال الأول** : هل يمكن ارسال مركبة فضائية الى القمر ؟

((**الجواب** : نعم .. اذا أمكن تزويدها بسرعة ابتدائية تعادل ١٢ ألف ياردة فى الثانية . فقد أثبتت الحسابات الرياضية الدقيقة ، أن هذه السرعة كافية لوصول المركبة الى القمر . وكلما ابتعدنا عن الأرض ، قلت حركة الجاذبية بتناسب عكسى .. الى أن تتلاشى قوة الدفع نهائيا فى اللحظة التى تكون فيها جاذبية القمر متعادلة مع جاذبية الأرض . وفى هذه اللحظة لا يكون للمركبة أى ثقل ، أى أن وزنها ينعدم تماما .. واذا تجاوزت المركبة هذه النقطة ، فانها تهبط على القمر بفعل جاذبيته . وعليه فان تحقق الفكرة يتوقف على قدرة وقوة الجهاز أو الصاروخ أو المحرك المستعمل لهذا الغرض ..

((**السؤال الثانى** : ما هى المسافة الحقيقية بين الأرض والقمر ؟

((**الجواب** : لايدور القمر فى دائرة كاملة حول الأرض ، بل انه يدور فى مدار بيضاوى ، يبعد عن الأرض فى أقص نقاطه بمسافة ٢٤٧٫٥٠٠ ميل ، وفى أدناها بمسافة ٢١٨٫٦٥٧ ميلا .

« **السؤال الثالث** : ما المدة التى تقطعها المركبة الفضائية المزودة بسرعة ابتدائية مناسبة ، وما الوقت المناسب لاطلاقها كى تهبط على القمر فى نقطة معينة ؟

« **الجواب** : اذا استطاعت المركبة الاحتفاظ بسرعة قدرها ١٢ ألف ياردة فى الثانية ، فلن تستغرق الرحلة أكثر من تسع ساعات تقريبا . ولكن ، بما أن هذه السرعة ستكون تنازلية ، فان المركبة تصل الى نقطة تعادل الجاذبية الأرضية والجاذبية القمرية بعد اربع وعشرين ساعة وعشرين دقيقة . ثم تهبط من هذه النقطة الى القمر فى مدى خمسين ألف ثانية ، أى بعد ثلاث عشرة ساعة وثلاث وخمسين دقيقة وعشرين ثانية .

« **السؤال الرابع** : فى اى لحظة يكون القمر فى الوضع المناسب ، والأفضل لهبوط **المركبة عليه ؟**

« **الجواب** : يجب أولا اختيار الوقت الذى يكون فيه القمر قريبا من الأرض ، حتى تقل المسافة التى تقطعها المركبة .. وفى الوقت ذاته ، يجب أن يكون القمر مارا بنقطة السمت ، فتقل المسافة التى يجب أن تقطعها بما يعادل نصف قطر الكرة الأرضية أى ٣٩١٩ ميلا — فتصبح ٢١٤٩٧٦ ميلا فقط .. وعليه يجب أن ننتظر مرور القمر بنقطة السمت ، وكذلك اقترابه من الأرض . ولحسن الحظ أن هذا سيتحقق فى ٤ ديسمبر من العام القادم .

« **السؤال الخامس** : الى اية نقطة من السماء يجب أن نصوب فوهة المدفع لاطلاق المركبة الفضائية ؟

« **الجواب** : يجب اطلاق المركبة نحو نقطة السمت ، فى اتجاه رأسى بالنسبة للأفق ، وبسرعة تمكنها من مقاومة الجاذبية الأرضية .

« **السؤال السادس** : فى أى مكان يكون القمر عند اطلاق المركبة الفضائية ؟

« **الجواب** : سيكون بعيدا عن نقطة السمت بنحو ٥٢ درجة و ٤٢ دقيقة و ٢٠ ثانية .. »

أسند « نادى السلاح » المشروع الى أربعة رجال : الرئيس باربيكان ، و « ج.ت. ماستون » .. ثم الجنرال مورجان ، والصاغ ألفينستون لمباشرة المسائل المالية والادارية .

وتبين أن الكبسولة يجب ألا تزيد فى الوزن على ٢٠ ألف رطل ، فاذا زادت وجب أن يفرغ جوفها بدرجة مناسبة .. وقال ماستون : « لابد أن يكون سمك الكبسولة بوصتين فقط » . فقال الجنرال مورجان : « ليس هذا كافيا .. لأنها لن تكون متينة بالدرجة المطلوبة . »

قال باربيكان : « يجب أن تصنع من مادة أخف من الصلب .. من الألومنيوم » .

فضحك ماستون ، وقال : « أعرف ما يدور بخلد صديقنا باربيكان .. انه يفكر فى المعدن المعروف باسم (ر . ر .) أليس كذلك ؟ »

ـ هذا صحيح ، فهو المعدن الأمثل .. انه ألومنيوم مخلوط بستة معادن أخرى ، بنسب ضئيلة جدا ولكنها تكسبه صلابة ومتانة .. وقطعة من (ر.ر.) أقوى ثلاث مرات من قطعة من الصلب بنفس الوزن . وقد وجدت أن وزن الكبسولة ـ بالشكل والحجم المطلوبين ـ لن يتجاوز ١٩٢٥٠ رطلا .

قال ماستون : « وما نفقات صناعة هذه الكبسولة ؟ »

ـ لنترك ذلك لأصدقائنا العسكريين ، وقد وعد أغنياء العالم بمعاونتنا .

والحق أن المشروع أثار اهتمام العالم ، وقال بعض كبار العلماء انه ضرب من المستحيل ، وقال بعض آخر انه امتحان لقدرة العلم .. وصارت كبسولة القمر موضوع حديث كل انسان ، حتى أولئك الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن العلم أو القمر .

أين يوضع المدفع ؟

حار العلماء والخبراء ازاء المكان المناسب لوضع المدفع الذى تطلق منه المركبة الفضائية .. وفى قاعة «نادى السلاح» اجتمعوا أمام خريطة كبيرة لتدارس الأمر .. وأرهف الجميع أسماعهم عندما اعتلى الرئيس باربيكان المنصة ، وعرض المشكلة :

« .. أين يقام مدفعنا الضخم ؟ .. فى أى مكان من قارتنا يوضع حتى تندفع الطلقة أو المركبة فى اتجاه القمر دون أى انحراف أو خطأ ؟ .. لقد أوضحت على هذه الخريطة الأماكن التى يمكن وضع المدفع فيها ، وسترون أن أنسب الأماكن تقع فى جنوب الولايات المتحدة ، أو الجزء الشمالى من أمريكا الجنوبية ، أو شمال افريقيا ، أو فى أرجاء من الهند أو الصين .. ولعلنا نتفق ـ بعد المشاورة ـ على أن يكون مدفعنا بالولايات المتحدة .. وأصلح مكان هو تكساس ، أو فلوريدا ... »

وهنا قاطعه الكابتن نيقول : « لا شك أن مدفعك سينفجر بقوة رهيبة فيقتل عددا كبيرا من الناس الذين يعيشون فى دائرة قطرها عدة أميال حوله .. فليوضع بعيدا عن المدن ! »

قال باربيكان : « لأول مرة يا سادة ، أتفق مع الكابتن نيقول على رأى .. »

ونهض الدكتور بيلفاست ، فواجه الأعضاء قائلا : « لاينبغى أن نفكر فى الموقع فقط ، بل لنفكر فيما تحته أيضا . لقد اقترح المستر باربيكان حفر مكان للمدفع على عمق تسعمائة قدم ، فأين تكون هذه الحفرة ؟ .. اذا حفرها فى أرض ناعمة فلن يجدى هذا مدفعه شيئا .. واذا حفرها فى أرض رخوة فستغمرها المياه .. واذا حفرها فى أرض صلدة ، فلن يتعمق لمسافة بعيدة .. وقد عكفت على فحص خريطة أراضى فلوريدا وتكساس ، فاكتشفت مكانا يطلق عليه (جبل الحديد) ، بالقرب من مدينة (تامبا) بفلوريدا .. »

قال الجنرال مورجان : « يجب اختيار منطقة خالية ننشر عليها أكواخ عمالنا ورجالنا ، وأن نكون قريبين من مدينة نحصل منها على المؤن والذخيرة .. وأن نكون — فى الوقت ذاته — على بعد مناسب من العمران ، حتى لا نهدد حياة الناس »

فقال الصاغ ألفينستون : « ان الجبل يقع على مسافة الى الشمال من مدينة (تامبا) ، ويرتفع الى ٣٥٠ قدما ، ويتوسط خلاء ، وسيكون .. »

وقاطعه الكابتن نيقول كعادته : « ما أطرف أن يحفر صديقنا باربيكان حفرة عمقها ٩٠٠ قدم ، فى كتلة من الحديد ... »

فضحك الدكتور بيلفاست قائلا : « ليس بجبل فلوريدا حديد على الاطلاق ، فهو يتكون من مادة كتلك التى تستخدمها الرئيس باربيكان فى الكتابة على السبورة .. أحجار جيرية .. »

وضج الأعضاء بالضحك ، فامتقع وجه الكابتن نيقول وجلس محنقا .. وأقر الجميع اقامة المدفع فوق جبل الحديد ، بالقرب من مدينة (تامبا) . ثم قال باربيكان :

– فهمت من أصدقائنا بجامعة شيكاغو أن تليسكوب مرصدهم لن يستطيع متابعة المركبة الفضائية ، فى رحلتها الى القمر .. لذلك فانهم سيصنعون « تليسكوب » أكبر ، وقد قرروا أن يتكفلوا بنفقات صناعته .. فلننشط للعمل بحماس وعزم وصدق وايمان ، ولنحقق للبشرية جمعاء حلما من الأحلام .. ولنثبت للعالم كله أن آفاق العلم لا حدود لها ، وأن العلم لا يعترف بالمستحيل ، بل يحطم السدود ويتخطى العقبات ...

صناعة المدفع العظيم

فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، وصل باربيكان وماستون ومورجان وألفينستون الى جبل الحديد ، وأشرفوا من ربوة عالية على الوادى الأخضر والسهول المنبسطة ، ثم تطلعوا الى السماء .. وما لبث أن لحق بهم رجلان ، كان أحدهما – ويدعى هاريسون – يحمل خريطة كبيرة . أما الآخر فكان يدعى « مارشيسون » وهو الذى عهد اليه بانجاز المشروع . وعلى هدى الخريطة حددوا بدقة المكان الذى تطلق منه المركبة ، ومواقع أكواخ العلماء والعمال ، والأفران الضخمة لصهر المعادن وتكوين سبائك متينة تحتمل رحلة الفضاء والهبوط على القمر ، ولصنع جسم المدفع الجبار .

وان هى الا أيام حتى أخذ العمال يتقاطرون على الجبل ، وبدأت الأكواخ تظهر تباعا ، وأنشىء خط حديدى بين المرفأ – فى مدينة (تامبا) – وجبل الحديد . وقرر المشرف على المشروع أن تبدأ أعمال الحفر فى العاشر من نوفمبر . وفى ذلك اليوم ، ألقى باربيكان كلمة فى العمال والمهندسين والعلماء قال فيها ان العمل يتطلب حفر حفرة عمقها ٩٠٠ متر ، تتوسطها دوائر من الصخور مثبتة بأسياخ من الفولاذ ، ويقام



القذيفة التى تحمل كبسولة الفضاء ، منطلقة نحو القمر
(كما تخيلها ((جول ڤيرن)) منذ ١٠٠ سنة !)

أمامها سياج من مواد عازلة للحرارة ، ثم تصب فى الحفرة معادن منصهرة لبناء مدفع ضخم لاطلاق سفينة الفضاء .

وتوالى العمل ليل نهار ، بدون انقطاع . وبرغم كل المصاعب والعقبات ، استمرت الجهود بعزيمة لا تعرف الكلل ، حتى اكتملت الحفرة فى العاشر من شهر مايو . ثم أعدت الدائرة لصب المعادن التى تؤلف فتحة تدخلها الطلقة أو المركبة الفضائية . وفى هذه الأثناء ، كانت هناك أعمال أخرى متممة لصناعة المدفع الفريد فى نوعه وحجمه .

وفى أوائل شهر يوليو كان كل شىء قد أعد ، وتقرر أن تصب المعادن المنصهرة فى الحفرة فى اليوم الثامن من الشهر . فلما حانت الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم ، فتحت أبواب مائة فرن فى لحظة واحدة ، فاندفعت السوائل المتوهجة الى الحفرة ، لتملأ فراغ الدائرة التى أعدت لاستقبالها . وتصاعدت الأبخرة كثيفة لبضعة أيام .. وفى منتصف أغسطس ، كانت الحرارة قد هدأت ، واستطاع العمال استئناف عملهم ، فأمكن تحديد مكان المدفع .. وفى سلة كبيرة ، هبط باربيكان والخبراء الى جوف الحفرة . وكانت الحرارة شديدة . ومن الداخل ، استطاعوا أن يروا خلال الدائرة ، رقعة صغيرة من السماء ، هى التى كان منتظرا أن يمر بها القمر بعد ساعات من اطلاق الكبسولة الى الفضاء .

أول رجل فضاء

كان الرئيس باربيكان يتناول غداءه — فى غرفته بمدينة (تامبا) مع الدكتور بيلفاست ، فى اليوم الحادى عشر من سبتمبر ، حين تلقى برقية قرأها ، ثم أعاد قراءتها وضحك .. وتطلع اليه الدكتور بيلفاست ، فقرأ عليه ما جاء بالبرقية :

« باريس ، فرنسا ـ ٢ سبتمبر : اصنعوا المركبة طبقا للخطة التى وضعتها بنفسى ، وسأستقلها فى الرحلة المرتقبة الى القمر . أصل على الباخرة اطلانطا ـ ميشيل آردان »

وأردف باربيكان : « انه مجنون بلا شك .. كيف يتسنى ذلك ؟ .. سيموت ان حاول ! »

قال الدكتور بيلفاست : « ما من مستحيل ! .. من الممكن أن تصنع الكبسولة بحيث يتوسطها صندوق لا يتأثر بانفجار المدفع .. هناك طريقتان تقومان على تزويد الصندوق بزنبركات تمتص الصدمات والارتجاجات أثناء الانطلاق من المدفع ! »

واستعلم باربيكان تليفونيا ، فعلم أن الباخرة تصل فى اليوم الرابع عشر .. وقال بيلفاست :

ـ أرى أن تأمر بارجاء صنع الكبسولة حتى يصل رجل الفضاء المتطوع لزيارة القمر .. فلابد أن لديه تفصيلات ، وأنه أعد للأمر عدته !

بعد أيام ثلاثة ، كان ماستون وباربيكان فى الميناء ، ينتظران وصول الباخرة اطلانطا .. لم يكن أحدهما يعرف « آردان » ، ولكن باربيكان اتصل بأصدقائه الفرنسيين فى نيويورك ، للسؤال عنه ، فكان جوابهم أن كل فرنسى يعرف « آردان » المخاطر الجرىء ..

قال ماستون : « أتظن أنه لا يعلم مدى الخطر الذى ينتظره ؟ .. ان الموت فى انتظاره . »

فقال باربيكان : « أعتقد أن العلماء الفرنسيين أوفدوه ، وحرصوا على أن يعيش ، فهم يودون معرفة ما اذا كان فى الامكان اطلاق انسان بمدفع فيظل حيا لا يموت »

ووجدا « آردان » ـ عندما وصلت السفينة ـ شابا فى الثلاثين ، صغير الجسم ، صلبا قويا ، ذا شعر أحمر غزير ،

ووجه عريض وعينين واسعتين .. كأنه قط كبير .

وسرعان ما جلس ثلاثتهم - وقد انضم اليهم الدكتور بيلفاست - حول مائدة نشر عليها « آردان » أوراقه وتصميماته .. وقال آردان بعد نقاش :

- الفكرة ببساطة هي أن الكبسولة تتكون من جزءين ، الأسفل منهما غير ملتصق تماما بالمركبة ، ليسقط عنها عند اطلاقها ، وهذا قد يبدد بعض قوة الانفجار ، ولكن الكبسولة أخف من تلك التي صممها نادي السلاح ، وسيكون في طول المدفع وكمية الانفجار ما يكفي .

وراح الدكتور بيلفاست ينعم النظر في الخطة ، ثم قال : « هناك أمر واحد لا أفهمه .. كيف ستعود المركبة الى الأرض ثانية ؟ »

وأضاف ماستون : « وأنا الآخر لا أفهم عدة أمور .. قد لا يقتلك الانفجار ، ولكنك ستموت حتما اذا سقطت كبسولتك على القمر في نهاية الرحلة الشاقة » .

وهنا قال آردان : « لقد أعددنا لكل شيء عدته ، فأسفل الكبسولة أثقل من أعلاها ، وعندما تدخل في نطاق الجاذبية الأرضية ، يكون جزؤها الأسفل في اتجاه الأرض ، وحين تكون في جاذبية القمر ، يصبح الجزء الثقيل في اتجاه القمر » .

- وما الذي سيحد من سرعتها عند هبوطها فوق القمر فلا تتهشم ؟

قال أردان : « في قاع الكبسولة عدة صواريخ تشعل عند اقتراب الكبسولة من سطح القمر ، فتمكنها من الهبوط ببطء وهدوء » .

وهنا تساءل باربيكان : « وما هذه المربعات التي بداخل الكبسولة ؟ »

ـ بعضها يستخلص الهواء من الغازات المستهلكة ، والآخر يضيف للهواء أوكسجين جديدا ، وستحمل الكبسولة خزانات بها أوكسجين يستخدم عند الحاجة .

واستطرد آردان يشرح تصميمه : « وفى داخل الصندوق الموجود بالكبسولة باب يتصل بأنبوبة تمتد الى الفلاف الخارجي ، حيث يوجد باب آخر يفتح بتحريك ذراع فى الصندوق الداخلى ، وبذلك تتسنى الرؤية خلال هذه النافذة المزدوجة ، كما يمكن اغلاق النافذة الداخلية وفتح الخارجية .. وهناك أربع نوافذ مزدوجة بهذا النمط ، فى كل جانب للمركبة واحدة .. »

وتساءل الدكتور بيلفاست عن طريقة العودة للأرض ، فقال الفرنسى : « اذا ما هبطت كبسولتنا الأولى الى القمر ، فبوسعنا اطلاق كبسولة أخرى تحمل صاروخا يعود براكب الأولى الى الأرض . وبما أن جاذبية القمر صغيرة ، فستكفى قوة بسيطة لدفع المركبة من القمر الى جاذبية الأرض .. »

قال الدكتور بيلفاست : « اننا نعلم أن القمر خال من الهواء ، ولابد أن تصطحب كمامة تمدك بالهواء عندما تغادر الكبسولة » .

***

وفى الخامس والعشرين من سبتمبر ، اجتمع أعضاء « نادى السلاح » مرة أخرى ، فأطلعهم باربيكان على تطورات المشروع ، ورسم الكبسولة على احدى سبورتين وضعتا خلف المنصة ، وشرح كل صغيرة وكبيرة فيها .. وعندما حاول الكابتن نيقول أن يثير المخاوف ازاء عودة راكب الكبسولة ، قال باربيكان : « هل تحبون أن يقال ان الأمريكيين يخافون على أموالهم ، فى حين أن الفرنسى لا يخاف على حياته ؟ »

وتعالت الأصوات تطالب بالمضى فى المشروع .. فتساءل نيقول : « وحياتك أنت أيها الرئيس ؟ » فانتظر باربيكان حتى هدأت الأصوات تماما ، ثم قال بوضوح وجلاء :

ـ انني ذاهب معه !

قال نيقول : « ذاهب لأنك توقن من أن الكبسولة لن تغادر فوهة المدفع » .

وهنا قال آردان : « اذا كنت متأكدا من هذا ، فلماذا لا تأتى معنا ؟ »

وارتفعت ضحكات القوم ، بينما قال نيقول : « لأن أحدا لم يوجه لى الدعوة » .

وانتظر باربيكان حتى هدأ الضحك وقال : « يسعدنا أن تشرفنا بالسفر معنا للقمر » .

وعكف الدكتور بيلفاست ـ بعد ذلك ـ على اجراءات صناعة الكبسولة .. وآثر ـ فى بادىء الأمر ـ اعداد نموذج مصغر ، وضع فيه كلبا ، وأطلقه من فوهة أضخم مدفع لدى الجيش الأمريكى ، فهبطت الكبسولة المصغرة فى المنطقة الرملية الواقعة فى شمال (تامبا) ، وأخرج منها الكلب سليما .. وهز نجاح التجربة البلاد بأسرها .

وصنعت الكبسولة فى مصانع الحديد والصلب بمدينة (بيتسبرج) ، ثم نقلت على عربة سكك حديدية صنعت خصيصا لها ، وخرجت جحافل الناس ليشاهدوها أثناء رحلتها الى موقع الاطلاق .. وفى تلك الأثناء ، كانت القذيفة التى أعدت لتحملها عبر الفضاء ـ أى الصاروخ (آتوميت) ـ فى الطريق الى (تامبا) بحرا ، ثم الى جبل الحديد ، حيث كان بانتظارها ـ عند أسفل المدفع ـ عدد كبير من الرجال ، لتركيبها ومد الأسلاك الكهربائية اللازمة .. حتى اذا وصلت الكبسولة ، وضعت بجوار المدفع الهائل .

فى داخل الكبسولة

كانت مدينة (تامبا) تعج بالناس والحركة ، فى صباح اليوم الأول من ديسمبر ، الذى حدد لاطلاق الكبسولة الى القمر .. وكان أعضاء « نادى السلاح » قد خفوا الى الموقع. وحددت الساعة العاشرة والدقيقة السادسة والأربعون من مساء ذلك اليوم موعدا للاطلاق ..

وفى داخل حلقة حول الموقع ، جلس ماستون وباربيكان وآردان وكابتن نيقول .. وكان الرئيس صامتا ، يقرأ فى كتاب ، والى جواره كلبه المدلل ، الذى تقرر أن يذهب معهم .. وبعد أن وضعت حول الكبسولة درجات خشبية ، ظهر مارشيسون وقال : « أمستعدون أنتم يا سادة ؟ »

وفى صمت ، نهض باربيكان فتأبط كتابه وسار ، وتبعه كلبه ، ثم آردان والكابتن نيقول . وتقدم الفرنسى فتسلق الدرجات الى قمة الكبسولة ، ثم أومأ لرفاقه ، فتبعه نيقول ، ثم باربيكان وكلبه . وما لبثوا أن غابوا داخل الكبسولة .. وأغلق بابها .

ورفعت الكبسولة فى الهواء ـ بوصة فبوصة ـ وفى داخلها رجال الفضاء ، لتدلى بحبال من الفولاذ الى فوهة المدفع .. حتى اذا هبطت عليها ، أخذت تنزلق فى «ماسورته» الطويلة تدريجيا ، حتى بلغت القاع .. وأصبح كل شىء على أهبة الاستعداد .

واستقل جميع من كانوا فى الموقع قطارا أقلهم الى (تامبا) ، بعيدا عن المنطقة الخطرة . ولم يبق غير «ماستون» الذى تريث برهة ، حتى اذا اطمأن الى خلو المكان من الناس، استقل سيارة خاصة الى مسافة نصف الميل من الموقع ، حيث أعدت حفرة كبيرة ، أقيم فيها كوخ حديدى ، غطى

سقفه بطبقة سميكة من الرمال الناعمة ، كما أقيم جدار سميك بين موقعي الكوخ والمدفع .. وعلى منضدة داخل الكوخ ، كان ثمة صندوق صغير يتصل كهربائيا بذخيرة المدفع ، وساعة صغيرة دقيقة أشار عقرباها الى الدقيقة الحادية والثلاثين بعد العاشرة مساء ..

وكان على « ماستون » – بعد ربع الساعة تماما – أن يضغط كرة حمراء تتدلى من الصندوق، فيسرى تيار كهربائى فى كتلة المتفجرات بالمدفع .. فاما أن يموت أعز أصدقائه – فى أول محاولة جريئة فى تاريخ العالم – واما تنطلق الكبسولة فى رحلتها الميمونة الى القمر .

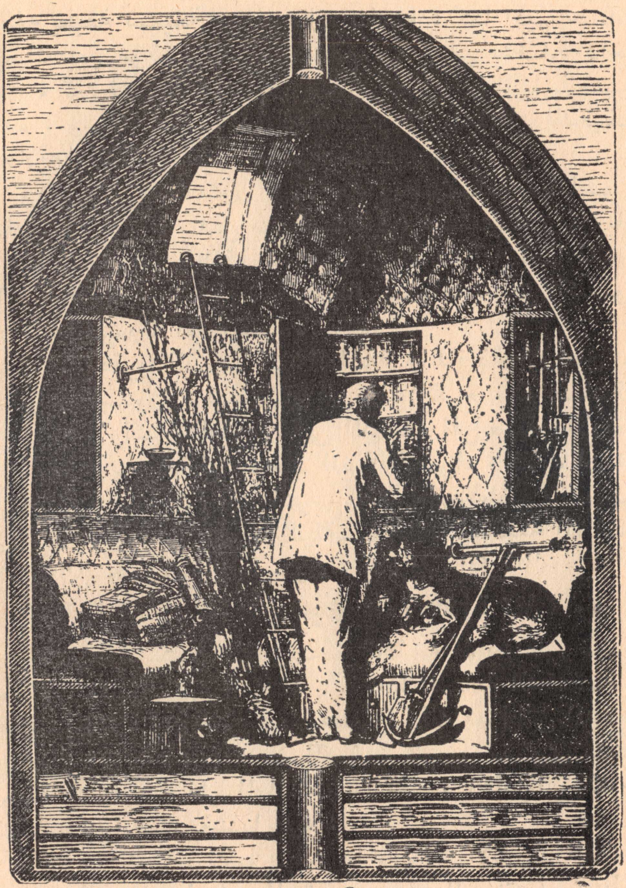
وأشار عقربا الساعة الى العاشرة والدقيقة الأربعين .. ونهض « ماستون » فسار الى باب الكوخ ، ثم عاد الى مجلسه .. وأشار العقربان الى الدقيقة الرابعة والأربعين بعد العاشرة .. اذا لم يضغط الكرة الحمراء ، فلابد أن تمر ثمانى عشرة سنة قبل أن يقترب القمر من الأرض بالدرجة التى كان مرتقبا أن يقتربها الليلة .. وحانت الدقيقة الخامسة والأربعون .. ووضع « ماستون » يده على الكرة الحمراء ..

الدقيقة السادسة والأربعون بعد العاشرة تماما ..

وفتح « ماستون » عينيه ، فاذا به طريح على ظهره ، وثمة دم يسيل على وجهه .. واذا الساعة الدقيقة قد سقطت بجواره وتحطمت .. وفطن الى أنه قد أطلق المدفع .

وخرج « ماستون » من الكوخ ، فلم ير سوى سحابة سميكة قد خيمت على العالم من حوله .. وعاد الى الكوخ ، فسقط على أرضه مغشيا عليه !

اهتزت مدينة (تامبا) بأسرها على أثر الانفجار العظيم ، وانهارت الجدران ، وطارت سقوف البيوت ، وتحطمت النوافذ .. وعندما انقشعت سحابة الدخان ، اضطرب الجو



كبسولة الفضاء من الداخل ،
كما تخيلها « جول فيرن » !

فاذا الأمطار تهطل بغزارة لعدة أيام متواصلة ، على الساحل الشرقى لأمريكا .. وحالت الغيوم دون أن يكشف « تليسكوب » جامعة شيكاغو عن شيء ما .. وأخذ الناس — فى العالم كله — يترقبون فى قلق ولهفة أنباء الكبسولة وماجرى لها ..

وفى ٦ ديسمبر ، أصدر المرصد بيانا رد على تساؤل الناس وتكهناتهم :

« .. ان الكبسولة لم تصل الى القمر ، وانما مرت بجانبه ، وهى الآن على بعد ٢٨٣٣ ميلا منه ، وستظل معلقة فى الفضاء الى أن يحدث أحد أمرين :

« ١ — قد يجذب القمر الكبسولة اليه ، بعد فترة من الزمن ، فتسقط على سطحه .

« ٢ — أو قد تظل تدور حول القمر الى الأبد ..! »

وكان فى الكبسولة « أوكسيجين » يكفى لشهر كامل ، وطعام وماء لمدة أطول .. ولازم « ماستون » و « بيلفاست » مرصد (ماونت لوك)، يتابعان — خلال التليسكوب — الكبسولة وبداخلها أصدقاؤهما الثلاثة الذين تطوعوا لأول مغامرة من نوعها فى تاريخ البشرية .. يحتمل ألا يعودوا منها.

فماذا جرى فى داخل الكبسولة ؟

لم تكد الكبسولة تستقر فى داخل « ماسورة » المدفع ، حتى أخذ ركابها يتأملون مقرهم الجديد .. كانت الغرفة الصغيرة المستديرة — فى جوف الكبسولة — ذات جدران مبطنة بمادة طرية ، حتى لا يصاب الرواد بأذى اذا ارتطموا بها .. وقد توسطتها مائدة وثلاثة مقاعد .. وتحت المقاعد المثبتة ، وضعت كميات من الطعام والشراب . وفى السقف ، ثبتت أجهزة تنقية الهواء ، وثلاثة مصابيح ..

وقال آردان : « انها سيارة لطيفة تقلنا عبر السماء ! »

فقهقه باربيكان قائلا : « بل سجن متحرك جميل ! » .. وعقب نيقول : « أو مقبرة متنقلة ! » .. وانصرف باربيكان الى قراءة كتابه ، بينما أخذ آردان يسجل مذكراته .. وما لبث الرئيس أن قال : « لم يبق غير عشر دقائق ، فلنستلق على الأرض ، لأنها أسلم مكان لنا ! » .. وبعد خمس دقائق ، قال : « سأطفىء المصابيح ! »

ـ بقيت دقيقة .. نصف دقيقة .. لم يبق ..

ثم حدث شىء رهيب !

بعد اطلاق المدفع

كان « ميشيل آردان » أول من فتح عينيه ، فرأى زميليه مستلقيين على الأرض ، وكأن الحياة فارقتهما .. وكان نيقول منكفئا فوق باربيكان ، الذى بدا فى حال سيئة ، فأسرع يرفعه عنه .. وأفاق نيقول من غشيته ، وبدأ يفطن الى الواقع ، فأهاب به آردان أن يساعده على اسعاف باربيكان ، الذى كان الدم يغمر وجهه من جرح فى عينه اليسرى .. وكان نيقول يبدى ارتيابا فى أن المركبة قد انطلقت بهم ، وآردان يسخر منه ..

واذ أفاق باربيكان ، تساءل : « هل نحن نتحرك ؟ » .. ثم أردف : « ان المكان شديد الحر .. أرى أن درجة الحرارة بلغت التاسعة والسبعين فارنهايت .. لابد أننا نتحرك ، وهذه الحرارة ناشئة عن احتكاك الهواء بجسم الكبسولة ! »

وتحرك نحو احدى النافذتين الجانبيتين ، ففتحها وحرك ذراع النافذة الخارجية .. وخلالها رأى الرجال الثلاثة ظلاما دامسا ، فقال نيقول : « لابد اننا فى قاع البحر » .. ولكن آردان صاح : « كلا .. انظر هناك .. النجوم تلمع فى السماء » .. ومالبث ان قال متسائلا : « ولكن ، أين القمر ؟ » .. فقال

باربيكان: « لنبحث عنه فى الجانب الآخر ! »

ووقف ثلاثتهم يتأملون السماء والقمر .. فى أقل من ست وتسعين ساعة سيصلون اليه ! .. وفجـأة هتف آردان : « ما هـذا الجسم الكبير ؟ » .. وصرخ نيقول : « اسرع يا باربيكان ! » ..

أخذ الجسم يكبر رويدا ، مندفعـا نحوهم ، فامتقعت وجوههم ، وظنوا أن نهايتهم قد اقتربت .. ولكنه مالبث أن مرق بجوار الكبسولة ، دون أى سـوء .. فقال باربيـكان : « كان شـهابا .. جزءا من نجم تفتت ، وقد راح يسبح فى الفضاء ، ثم دخل فى نطاق الجو المحيط بالأرض ، فأحدث احتكاكه بالهواء حرارة شديدة .. ان الشهب الصغيرة تحترق قبل أن تصـل الى الأرض ، أما الكبيرة كهذا ، فلا تشـدها جاذبية الأرض ، وتصبح قمرا ثانيا فى فلكها .. ولكنا لا نراه من الأرض ، لأنه صغير جدا نسبيا ، وحركته سريعة جدا ، فضلا عن أنه غير لامع .. » .

وأغلق باربيـكان النافذتين الجانبيتين ، وفتح النـافذة السفلى ، واذا أبصارهم تقع على قوس فضى ، هو كل مابدا من الكرة الأرضية ، التى غابت بقيتها فى ظلام دامس ، اذ كانت الشمس فى الجانب الآخر منها .. وقال آردان : « أخبرنى يا باربيكان .. لماذا لم نسمع صوت المدفع عند الانطلاق ؟ »

ـ لأننا اندفعنا بسرعة تفوق سرعة الصوت . هيا نتناول أول فطور لنا خارج الكرة الأرضية .. ولعل الكلب سيبتهج بالطعـام !

وفتح صندوقا كان الكلب قد أودع به ، فوجده ساكنـا وهتف قائلا : « انه مريض .. أظنه يعـانى سكرات الموت » .

ومرت الليلة الأولى بسلام .. ونقول « ليلة » مجازا ، فليس بالفضاء ليل ولا نهار .. وفى اليوم التالى ، تقاسم الرجال أعمالا لابد من انجازها ، فتفقد باربيكان الكلب ، ووجده فى حال يرثى لها ، ثم فحص أجهزة الأوكسيجين فوجدها فى خير حال .. وتفقد آردان المؤن ، بينما جلس نيقول يكتب مذكرات ملأها برموز هندسية وجبرية ..

وانقضى يومهم الأول ــ بداخل الكبسولة ــ فى هدوء تام .. وبعد أن تناولوا غداءهم ــ فى اليوم التالى ــ عاد نيقول الى أرقامه ورموزه ، فلما سأله باربيكان عنها ، قال : « اننى أعيد حساب كل شىء ، لأقدر متى نصل الى القمر .. ولكنى أرى ان كمية المتفجرات لن تحمل المركبة الى نطاق جاذبية القمر .. ولم يبق أمامنا غير خمسين ساعة ، ثم نسقط ثانية فى اتجاه الأرض ! »

وأخذ باربيكان يراجع الحساب بدقة ، ثم قال لنيقول : « انك عملت فى البحار طويلا ، وتستطيع قراءة خريطة النجوم لتحديد موقع السفينة .. وستجد فى هذا الصندوق كل ما تحتاج اليه ، فادرس النجوم وحاول تحديد موقعنا من الفضاء ! »

وتطوع آردان لمساعدته ، اذ عمل بحارا لعدة سنوات .. وعاد باربيكان الى مراجعة الأوراق . وفجأة صاح آردان : « هذا غير جائز ، أرنى الأوراق !.. هل حسبت ــ ضمن وزن الكبسولة ــ ذلك الجزء الذى سقط عنها بعد مغادرتها المدفع ؟ »

وهنا هتف نيقول : « انك على حق .. يا لغبائى ! اننى لم أنقص وزن هذا الجزء من الوزن الكلى للكبسولة »

وفى رابع أيام الرحلة ، شغل الرواد الثلاثة بمناقشة احتمالات وجود الهواء فى بعض أجزاء القمر .. فلما كان

صباح اليوم الخامس ــ ٥ ديسمبر ــ فوجئـــوا بأن كلب باربيكان ودع الحياة .. وكان لابد من التخلص من جثته ، فاقترح آردان فتح النافذتين الداخلية والخارجية ، والقـاء الجثة فى الفراغ ، ولكن « نيقول » أنذر بأن البرد شديد خارج الكبسولة .. وقال باربيكان :

ــ ان الجو بارد خارج الكبسولة ، لعـدم وجود هـواء يمتص حرارة الشمس . ولكن الأخطر من هـذا أن يتسرب الهواء الموجود فى الكبسولة اذا فتحنا النافذة ..

وانتهوا الى فتح النافذة الداخلية ــ فى أحد الجانبين ــ ووضع الكلب خلفها ، ثم اغلاقها قبل فتح النافذة الخارجية بوساطة الذراع الموجودة داخل الكبسولة .. وبهذا تخلصوا من الجثـة .

وفيما كانوا يتأهبون لتناول الفطور ، لاحظوا أن الأشياء أخذت تسبح فى جو المكان ..

وقال باربيكان اذ لاحظ دهشة زميليه : « ليس فى الأمر قوة سحرية .. كل هذا راجع الى انعدام الوزن للأجسام .. ان وزنك على الأرض ١٥٠ رطلا يا آردان ، ومعنى هـذا ان الأرض تجذبك اليهــا بقوة ١٥٠ رطلا .. والأرض أكبر من القمر ست مرات ، أى ان جاذبية القمر سدس جاذبيتها ، أى انك تستطيع أن تقفز الى مسافات عالية جدا فوق سطحه .. اننا نفقد وزننا تماما على هذه المسافة من الأرض ، حوالى ١٨٧٢١٠ أميال .. فهنا تتساوى جاذبيتا الأرض والقمر ، ولهـذا فالكبسولة لا تسعى نحو القمر فى هذه اللحظـــة بالذات .. » .

وهتف آردان جزعا : « اذن فالى أين نتجه ؟ »

ــ لا أدرى .. قد تتجه الكبسولة نحو الأرض .. كان لزاما أن ينقلب وضعها ، لأن قاعها أثقل من أعلاها ، مما يمكن

جاذبية القمر من أن تكون أشد تأثيرا عليها من جاذبية الأرض .. فلنر ان كانت قد انقلبت فعلا ! .. لنفتح النافذة السفلى .. اذا كانت الكبسولة قد انقلبت فسنطل مباشرة على السهل المتوسط العظيم بالقمر ..

واذ شرع باربيكان يفتح النافذة ، صرخ آردان : « هناك شهاب قريب جدا .. لونه أسود ! »

واختفى الشهاب ثم عاد .. ومالبثوا أن تبينوا انه جثة الكلب ، فقال باربيكان : « كان يجب أن نتوقع هذا .. أن جثة الكلب تهبط بدورها على القمر .. وفى الهواء تتباين سرعات هبوط الأجسام لأن احتكاك الهواء بها يخفف من سرعتها حسب أوزانها .. أما اذا أنعدم الهواء ، فكل الأجسام تسقط بسرعة واحدة .. » .

واتجه باربيكان الى النافذة السفلى ، ثم قال : « ان قاع المركبة يتجه الآن نحو القمر ! » .. وفتح النافذة ، فهتف آردان : « ان القمر الى يميننا ! »

قال باربيكان مفكرا : « حقا .. والكبسولة تدور الآن حوله ، ولكنها لم تنقلب كما توقعت .. هذا أمر غريب ! » .

وظل هذا الأمر يشغل باله حتى مساء اليوم التالى .. ففى منتصف ليل ٥ ديسمبر ، كان مقدرا للقمر أن يكون فى أقرب نقطة من مداره الى الأرض .. وكان محددا للكبسولة أن تهبط ، فى منتصف السهل الأوسط العظيم ، اذ أن المدفع كان قد صوب نحو هذا الموقع ..

وقال باربيكان مهموما : « لا شك أن علماء شيكاغو ارتكبوا خطأ جسيما .. كان لزاما أن تنقلب الكبسولة — فى هذا الوقت — رأسا على عقب ، وأن تتجه مباشرة ، فى خط مستقيم ، نحو منتصف السهل .. وأخشى أن تنحرف فتهوى على سفح جبل ، واذ ذاك تتهشم .. »

وفى حوالى الساعة التاسعة ، ألقى باربيكان نظرة أخرى، خلال النافذة .. كانت أضواء فضية تكسو سطح القمر .. وانقلبت الكبسولة فعلاً ، وشرعت تهبط نحو السطح .. ولكن السهل الأوسط كان قد اختفى ، وبدت لهم منطقة جبلية وعرة ، وقال نيقول : « يبدو أننا سنصطدم بهذه الجبال » .. فقال باربيكان :

ـ الساعة الآن التاسعة وثلاث عشرة دقيقة .. ونحن نتحرك ، والقمر يتحرك كذلك .. وربما تغير الموقع عندما نبلغ منتصف الليل .. اننى موقن من أن المدفع صوب نحو مركز السهل الأوسط ، وان الوقت والمكان تم حسابهما بدقة متناهية .. ومع ذلك ، فها نحن متأخرون عدة ساعات عن الموعد المحدد ، وها نحن بعيدون عن مسارنا .. فلماذا ؟

وران صمت مطبق على الكبسولة وركابها .. ثم انصرف باربيكان الى مذكراته وحساباته بينما افترض نيقول أنهم فى سفينة فى البحر ، فأخذ يستخدم فنونه البحرية فى محاولة رسم مسار الكبسولة .. أما آردان ، فأخذ يعد العشاء .

وقال نيقول : « لا أستطيع تحديد السرعة التى نهبط بها بدقة .. وأرى أن الكبسولة تسير فى خط منحن ، ولكن الوقت قصير .. »

وانتصف الليل ، ولم تهبط الكبسولة .. وفى الجو الواجم الحزين الذى ساد ركابها ، قال باربيكان : « هناك قوتان تتصارعان .. قوة اندفاع الكبسولة ، وما من هواء هنا يخفف منها .. وقوة جاذبية القمر . فاذا كانت الأخيرة أكبر ، فان طريقنا منحن على شكل قوس يتجه الى القمر .. أما اذا كانت الأولى أكبر ، فان القوس يكون مقعرا ، طرفاه الى أعلى ، فتمر الكبسولة بالقمر دون أن تسقط عليه .. وسننطلق فى الفضاء حتى يجذبنا كوكب آخر ! »



« .. منذ الصباح ، تجمعت جماهير غفـيرة
فى الميدان ، تنتظر اللحظة الحاسمة ! »

فى شمال القمر

كان الطريق الذى سلكته الكبسولة يحملها نحو الجزء الشمالى من القمر . وراح نيقول يقيس بعدها عن سطحه فى فترات مختلفة ، بمساعدة آردان ، بينما كان باربيكان يحدد المواقع التى يمرون فوقها .. ومرت الكبسولة فوق قمة جبل (كوبرنيكوس) ، والى جوارها ، رأى الرواد قمما أصغر ، وفجوات غريبة تغطى سطح القمر .. وفى الساعة الواحدة صباحا ، تبين نيقول أن البعد بين الكبسولة والقمر أصبح ٦٠٠ ميل فقط ، ثم انخفض فى الساعة الثانية الى ٥٠٠ ، مما أكد أن الكبسولة تهبط ..

وفى الساعة الثالثة صباحا ، كانت الكبسولة قد اقتربت جدا من القمر .. فلما حانت الرابعة ، اذا بها تنتقل من الضوء الى الظلام فجأة .. وأصبحت تدور حول القمر ، فى الجانب الذى لا تراه الأرض . وبدا أنها اقتربت جدا من السطح . ولكنها لم تسقط !

واستبد التعب بباربيكان ونيقول ، فقررا أن يخلدا الى سنة من النوم .. على أنه لم ينقض طويل وقت حتى استيقظا على صرخة من « آردان » .. كان ثمة شهاب أخذ وهجه يزيد ويشتد ، ثم انفجر فجاة .. وعلى وهجه ، أتيح لهم أن يلقوا نظرة على ما لم يره انسان من قبل .. على الجانب المظلم من القمر . وقال آردان : « قد يصطدم بنا شهاب ونتمزق اربا ! » فقال باربيكان : « بل نتحول لغازات »

وبعد يوم قضته الكبسولة فى ظلام دامس ، تراءت لركابها أشعة الشمس ..

وقال نيقول : « معنى هذا اننا ندور حول جنوب القمر .. »

وحاول باربيكان أن يعلل عدم هبوط الكبسولة الى سطح القمر .. وداخلته هواجس آثر أن يكتمها حتى لا يزيد من ذعر زميليه . وعكف على دراسة خريطة القمر ، وتحديد الأماكن التى كانوا يحلقون فوقها .. وما لبثوا أن تبينوا أنهم يبتعدون عن القمر ، وان الكبسولة تغير اتجاهها بانحراف جانبى .. واذ ذاك هتف باربيكان :

ـ الحمد لله ، هذا ما كنت أرجوه .. لقد حانت فرصتنا الوحيدة .. ان الكبسولة تنقلب أثناء حركتها حول القمر ، فاذا وصلت الى جنوبه فانها تواصل الدوران وأحد جانبيها ـ وليس مقدمتها أو مؤخرتها ـ متجه نحو القمر ..

وأسرع باربيكان الى النافذة العليا ، وراح يتأمل خلالها القمر والسماء .. كانت السماء قد بدت لهم ـ عندما دارت كبسولتهم خلف القمر ـ سوداء داكنة ، اذ أنها تبدو لنا ـ من الأرض ـ زرقاء ، لوجود الهواء المحمل بذرات الماء ، فاذا انكسر ضوء الشمس فى الهواء بدا لنا اللون الأزرق .. ولكن انعدام الهواء حول القمر يؤدى الى رؤية السماء سوداء قاتمة . وفى منتصف النهار فى القمر ـ فى ذلك اليوم بالذات ـ كانت الأرض تتوسط الشمس والقمر تماما ، وثلاثتها على خط مستقيم ، فحجب ظل الأرض الضوء عن القمر .. ولم تكن هناك ألوان واضحة ـ على القمر ـ عدا اللونين الأحمر والرمادى على بعض الصخور .. يضاف الى هذا ، أن النهار والليل يتعاقبان على القمر بسرعة ، فليس هناك اظلام بطىء .. وكأنك تضغط زرا فيختفى الضوء فى الحال . على أن جداول من الأضواء الذهبية والحمراء القانية كانت تسقط على القمر فتتحول الى ظلال خضراء زاهية وزرقاء لامعة .. واستهوى هذا المنظر الرواد ، بينما قال باربيكان :

ـ انه كسوف الشمس على القمر ، تسببه الأرض ..

وعاد بعد برهة يقول :

ـ أغلب الظن أننـــا عائدون الى الأرض .. تأملا هــذا الرسم . اننا الآن ننطلق الى النقطة البعيدة عن القمر ، حيث تتساوى جاذبيتا الأرض والقمر . وما لم يحدث ما ليس فى الحسبان ، فاننا سنظل مشدودين نحو القمر ، وندور حوله .. شىء واحد فقط يخرج الكبسولة من نطاق جاذبية القمر ، لترتد الى الأرض ..

فقال آردان : « اذن فأنت تفكر فى قوة الصواريخ المركبة فى الكبسولة ! »

ـ أجل .. كانت الغاية منها تيسير الهبوط السهل على القمر .. ولكن نقص الهـواء والطعام يضطرنا للعـودة الى الأرض .. فهل نتفق على هذا ؟

ـ اذا استخدمنا هـذه الصواريخ ، فلن يبقى لدينـا ما يخفف سرعة اندفاعنا الرهيبة الى الأرض ، فى العودة .

ـ ان ثلاثة أرباع الكرة الأرضـية مغطاة بالماء ، ففرص هبوطنا فى البحر بنسبة ثلاثة الى واحد ..

وكانت الكبسولة تقترب الى نقطة التعادل بين جاذبيتى الأرض والقمر .. وعندما تساوت الجاذبيتان ، انعدم وزن كل شىء فى الكبسولة ، فأخذت الأشياء تسبح فى داخلها . وكانت الساعة الواحـدة قبل خمس دقائق ، فتأهب آردان ليضغط الذراع الذى ينقل الكهرباء الى الصواريخ ، فقال باربيكان : « انتظر .. سأعد من واحد الى عشرة بترتيب عكسى ، فاذا وصلت الى الرقم واحد ، فاضغط الذراع » ..

انهم عائدون !

فى اليوم الحادى عشر من ديسمبر ، كانت البـــاخرة الأمريكية « سالم » تقيس عمق المياه ـ فى المحيط الهادى ـ على مسافة مائتى ميل من السـاحل . فلما أتمت عمليات

يومها ، اتجهت عائدة الى (سان فرانسيسكو) .. ولم يكن من حديث للربان وبحارته - اذ جلسوا للعشاء - الا الكبسولة التى انطلقت نحو القمر ، وركابها الثلاثة . وقال الربان : « لقد مرت عشرة أيام ، فما الذى جرى لهم ؟.. ألا تزال الكبسولة تدور حول القمر ؟ »

قال ضابط يدعى فيلد : « بل انهم سيعودون يا سيدى » .

- هراء .. كيف يمكن أن يعودوا ؟

- بل انهم سيعودون الى الأرض .

وغادر مكانه لتفقد بعض واجباته ، فلما بلغ سطح السفينة ، تطلع الى القمر قائلا : « انهم عائدون ! »

وفى تلك اللحظة بالذات ، سمع « فيلد » صوتا غريبا .. وأخذ الضجيج يشتد ، حتى أنه اجتذب الربان وضابطا آخر فأقبلا ليتبينا جلية الأمر .. واذا جسم شديد التوهج يهبط من السماء ، ثم يهوى فى البحر ، فيرتفع الماء الى مسافة كبيرة ..

وهتف فيلد : « صح ما قلت لكم .. لقد عاوا الى الأرض ! »

وطيرت الباخرة النبأ الى وزارة الحربية ، فى وشنطون .. وقال الربان :

- ليس لدينا ما نستعين به على رفع هذا الجسم من الماء ، فلننتظر !

وسرعان ما انتشر النبأ فى العالم ، وراح الناس يتكهنون بحقيقة الجسم الذى سقط من السماء ، فبعضهم أكد أنه شهاب ، بينما رجح آخرون أنه الكبسولة .. وكثرت الشائعات ، ولم يكن فى العالم كله سوى رجلين يملكان أن يجزما بأنه الكبسولة ، اذ أنهما كانا يراقبانها من مرصدهما

ـ ليل نهار ـ بالتناوب .. وهما « ماستون ، والدكتور بيلفاست » .. وقد كان أولهما يتولى المتابعة فى أصيل ذلك اليوم ، فرأى الكبسولة تدور حول الطرف الجنوبى للقمر ، ونادى زميله ليشهدها .. ولكن القمر كان قد دخل فى منطقة كسوف الشمس ، فقال الدكتور بيلفاست : « لن نرى الكبسولة الليلة .. فاذهب لتنام ! »

***

وكان ماستون يغط فى نومه ، عندما رن جرس التليفون فى الساعة العاشرة ، وطلب المتكلم « ماستون » ، فأيقظه بيلفاست .. واستمع ماستون الى الحديث ، ثم هتف : « ماذا ؟.. بقرب ساحل المحيط الهادى ؟.. هل حدد المكان ؟.. بيلفاست ، لقد عادوا ! »

وكان لا بد من سفينة ذات اعداد خاص ، لانتشال الكبسولة ، فقد كان وزنها يجاوز ١٩٢٥٠ رطلا . وكانت المياه عميقة فى ذلك الموقع من المحيط .. وقد استغرق اعداد السفينة ـ فى سان فرانسيسكو ـ خمسة أيام ، ثم أبحرت وعلى ظهرها ماستون والدكتور بيلفاست .. وفى تلك الأثناء ، كان الكثيرون يمخرون عباب المحيط ليشهدوا المناسبة .

ولكن السفينة لم تر أثرا للكبسولة ، حين بلغت الموقع .. وقال القبطان :

ـ ان الماء عميق ، ولا يستطيع غواص ـ مهما تكن الامكانيات ـ أن يتجاوز ٣٠٠ قدم تحته .. لذلك لا بد من أن ندلى كرة مجوفة ضخمة من الفولاذ ، بها عدة نوافذ ومصابيح قوية ، ومزودة بالهواء ليهبط فيها غواص ، ثم نحركها فوق القاع ، حتى نعثر على الجسم الذى سقط ، فندلى حبالا فولاذية متينة لرفعه ..

وهبطت الكرة الى الماء .. وواصلت الهبوط حتى القاع ، والغواص على اتصال تليفونى بالربان .. وقال له أخيرا : « اننى أرى القاع ولا أثر للكبسولة .. حركوا الكرة ببطء نحو الشمال » .

وحركت الكرة نحو الشمال ، ثم نحو الغرب .. ثم ناحية الشرق ، فالى الغرب .. واستمرت الجهود ستة أيام دون جدوى ، والقلق يستبد بماستون .. فلما اكتمل الأسبوع ، ثار على الربان - وكان يدعى « فينك » - قائلا : « لقد ظل أصدقائى فى قاع المحيط اثنى عشر يوما ، دون أن نوفق فى العثور عليهم .. ان الهواء الذى لديهم لن يكفيهم طويلا » .

وقال الدكتور بيلفاست : « من الجائز أن يكون تيار قوى قد جرفهم بعيدا » .

وبعد أربعة أيام أخرى ، أصدر الربان « فينك » أوامره للسفينة بالعودة قائلا : « لن نستطيع الاستمرار فى البحث .. واذا أسرعنا فقد نصل الى سان فرانسيسكو فى وقت مناسب لقضاء ليلة عيد الميلاد » .

وفى أصيل ٢٥ ديسمبر ، سمع الربان أحد رجاله يصرخ : « هناك .. ناحية الشرق ، أرى جسما فضيا ، يعلوه علم » .

وتحولت السفينة متجهة الى الجسم . واذ اقتربت ، بدا أن العلم أمريكى .. وألقى الدكتور بيلفاست المنظار المقرب من يده ، وهتف : « يا لى من أحمق !.. كم وزن الكبسولة ؟ » .. واذ أجاب ماستون بأنها أقل من عشرين ألف رطل ، صاح :

- هذا الوزن ، بالنسبة لحجمها ، يجعلها أخف من الماء ، فلماذا كنا نبحث فى قاع البحر ؟

وسرعان ما حمل قارب صغير الربان وماستون والدكتور بيلفاست الى الكبسولة .. وكانت النافذة الخارجية العليا

مفتوحة ، وأصوات الرواد الثلاثة تسمع بوضوح ، وهم يرددون بعض الأناشيد ، فقال الربان : « يبدو أنهم يتناولون عشاء عيد الميلاد ! »

اجتماع فى نادى السلاح

امتلأ « نادى السلاح » عن آخره بالناس .. وما ان ظهر باربيكان وآردان ونيقول ، حتى سيطر الهدوء لحظة ، ثم دوت عاصفة من التصفيق الحاد .. فلما هدأت ، قرأ ألفينستون تقريرا عن أعمال النادى ، فى العام المنصرم ، ثم نهض باربيكان قائلا :

« نرى أنه قد تبقى فى خزانتنا حوالى سبعين ألف دولار ، بعد أن سددنا جميع تكاليف صناعة المدفع الضخم ، والذخيرة ، وغيرها . فماذا نفعل بهذا المال الوفير ؟ »

ووقف الجنرال مورجان ، فوصف ما آلت اليه الحقول والأشجار فى منطقة المدفع ، من جراء اطلاق الكبسولة .. وكانت المنطقة مقصد الناس فى عطلاتهم من قبل .

فقال الرئيس باربيكان : « هل تقصد أن ننفق المال فى عمل شىء من أجل سكان مدينة تامبا ، الذين عاونونا خلال أيام التجارب العلمية ؟.. اذن ، أقترح اقامة مبنى عال فوق موقع المدفع الضخم ، تعلوه ساعة كبيرة تدق كل ساعة ، فاذا سمع الناس دقاتها تذكروا رواد القمر » .

والى اليوم ، يقوم — فوق جبل الحديد — « مبنى الأجراس » .. فاذا لم تصدقنى ، فاذهب الى هناك ، لتتحقق بنفسك !

***

تعقيب

الدراسات العلمية فى أدب « فيرن »

لعل رواية « جول فيرن » ـ كما قرأناها فى الصفحات السابقة ـ مثال رائع لدقة الأديب اذا ما عالج موضوعا علميا .. فان الروائى الفرنسى الخالد الذكر لم يطلق خياله على عواهنه ، وانما درس كافة الحقائق العلمية دراسة دقيقة ، ليبنى عليها وقائع روايته ..

على أن الدراسة العلمية لم تكن المجال الأوحد للمجهود الفكرى الذى بذله « جول فيرن » .. بل ان هذا المجهود تشعب فى اتجاهات كثيرة ، لعل أبرزها يتمثل فى تعمق الكاتب فى دراسة طبيعة الشعب الأمريكى ، الذى تنبأ بأنه سيكون أسبق الشعوب الى بلوغ القمر .. فقد استطاع أن يسبر غور الطبيعة الأمريكية ، والشعب الأمريكى ـ اذ ذاك ـ فى طور الحداثة ، فيقول :

« وغريب أمر الأمريكيين ! .. فعندما تختمر فكرة فى رأس أحدهم ، يبحث فى الحال عن أمريكى آخر يشاركه تنفيذها .. واذا اجتمع ثلاثة بادروا الى تعيين واحد منهم رئيسا ، وأصبح الآخران سكرتيرين .. واذا كانوا أربعة فسرعان ما ينشئون شركة .. أما اذا كانوا خمسة فانهم يؤسسون ناديا .. »

واستطاع « جول فيرن » منذ أكثر من قرن ـ أن يتبين ناحية أخرى من نواحى الطبيعة الأمريكية ، تلك هى أن الأمريكيين يقيمون حضارتهم واقتصادياتهم على صناعة أسلحة الحرب والدمار .. وقد رأينا كيف راح أعضاء

« نادى السلاح » ينعون على الناس انصرافهم عن الحروب ، مما أدى الى كساد صناعة الأسلحة ، حتى ليقول المدعو « بيلسبى » (أحد أشخاص الرواية) :

« لقد انصرف الناس الى أعمالهم وتجارتهم ووظائفهم .. أى عصر هذا ؟! .. الناس ــ سامحهم الله ــ يريدون اليوم مزيدا من السيارات الأنيقة .. والجنود ينصرفون الى عمل غير القتال .. والقادة استبدلوا مدافعهم بتجارة القطن .. ان مستقبل أمريكا فى السلاح قد ضاع ! »

ويزداد « فيرن » تعمقا فى استجلاء طبيعة الشعب الأمريكى ونفسيته ، حتى ليكشف الحقيقة التى تبينها العالم جليا ، عقب الحرب العالمية الثانية .. وهى أن أمريكا لا تتورع عن اشعال نيران الحروب ، لتفتح مجالات لتجارة الأسلحة .. فيقول على لسان « ماستون » :

« اذا كانت الحرب قد انتهت ، فلابد لحرب أخرى أن تنفجر يوما .. ماذا دها الناس ؟.. لقد كسدت بضاعتنا ! »

أما الحقائق العلمية التى توصل اليها خيال الروائى « فيرن » ، قبل أن يبلغها اجتهاد العلماء بأكثر من قرن ، فقد أجاد عرضها « وليام ا . هـ . بيرنى » ، فى مقال نشرته مجلة « ريدرز دايجست » أخيرا ــ فى عدد أكتوبر ١٩٦٩ ــ ومما جاء فيه :

« فى عام ١٨٦٥ ، كتب « فيرن » يصف الرحلة من الأرض الى القمر ــ وحول القمر ــ فشابهت أحداث قصته العمل العظيم الذى قامت به « أبوللو ١١ » ، فى عام ١٩٦٩ : من ذلك مثلا أن كبسولة « جول فيرن » كانت تحمل ثلاثة رجال ــ أمريكيين وفرنسيا ــ و (كبسولة « أبوللو ١١ » حملت ثلاثة) ، كما كان حجم الكبسولة مقاربا لحجم مركبة الفضاء « أبوللو ١١ » ، اذ كان ارتفاع كبسولة « فيرن » ــ المخروطية الشكل

والمصنوعة من الألومنيوم ــ خمس عشرة قدما ، وقطرها تسع أقدام ، بينما كان ارتفاع مركبة « أبوللو ١١ » عشر أقدام وسبع بوصات ، وقطرها اثنتى عشرة قدما وعشر بوصات .

.. وكان المكان الذى انطلقت منه الكبسولة ــ أو الذى اختاره « فيرن » لانطلاقها ــ يقرب من خط العرض ٧٧ فى (فلوريدا) ، على بعد ١٤٠ ميلا من (كيب كيندى) التى انطلقت منها « أبوللو ١١ » ! وفى رواية « فيرن » نجد أن (تكساس) جاهدت الى اللحظة الأخيرة ، لتحصل على شرف اطلاق الكبسولة من أراضيها . وقد قدر لتكساس أن تكون المكان الحقيقى الذى اختارته هيئة الفضاء مقرا للاشراف على سير رحلة مركبة « أبوللو ١١ » .

ولقد قدر « فيرن » سرعة الكبسولة ــ عند اطلاقها ــ بستة وثلاثين ألف قدم فى الثانية .. وبعد اطلاق مركبة « ابوللو ١١ » ، كانت سرعة محرك المرحلة الثالثة ٣٥٫٥٣٣ قدما فى الثانية ! .. وقدر « فيرن » لكبسولته زمنا لا يزيد على ٩٧ ساعة و ١٣ دقيقة و ٢٠ ثانية لكى تصل الى القمر ، وكان الوقت الذى استغرقته « أبوللو ١١ » ــ فى رحلتها ــ ١٠٣ ساعات و ٣٠ دقيقة ! .. ودارت كبسولة « فيرن » عدة مرات حول القمر ، وعلى نفس الارتفاع الذى وصلت اليه مركبة « ابوللو ١١ » القائدة ..

ولقد عاين رجال الفضاء ــ الذين كانوا فى الكبسولة ــ حالة انعدام الوزن ، وصور كل من الفريقين السطح القمرى .. كما رسم « فيرن » ــ منذ نحو مائة عام ــ بحر الهدوء الذى هبط اليه فى ١٩٦٩ كل من « نيل آرمسترونج » و « ادوين ألدرين » ، حتى أن خاتمة القصة وخاتمة رحلة « أبوللو ١١ » تشابهتا الى درجة تدعو للغرابة والدهشة ،

فقد هبطت كبسولة « فيرن » فى المحيط ، وهبطت كبسولة « أبوللو ١١ » فى المحيط أيضا .. والتقطت سفينة ضخمة رجال الفضاء بعد هبوطهم من القمر الى المحيط فى الحالتين !

***

وهكذا يمكن القول أن « جول فيرن » كان من أعظم كتاب القصة العلمية الخيالية فى عصره ، أى فى منتصف القرن التاسع عشر الذى عاش فيه .. وكان أحد هؤلاء الذين تنبأوا بهذا الانتصار العلمى الرائع ، كما كانت له عدة كتب عالمية على جانب كبير من الأهمية ، منها : « عشرون ألف فرسخ تحت الماء » ــ التى تصور فيها الغواصة قبل أن تخترع ــ وقصته المشهورة « ثمانون يوما حول العالم » ، التى وصف فيها الطائرات قبل أن تظهر الى الوجود !

وفى قصته المشهورة هذه : « من الأرض الى القمر » ، كانت حساباته وتقديراته كلها صحيحة ودقيقة ، لأنه اعتمد على قوانين الطبيعة وطبقها فى تصوراته وتخيلاته ، واعتمد كذلك على النظريات الفلكية القديمة ..

بل لقد أمدت « التكنولوجيا » الحديثة سفينة الفضاء « أبوللو ١١ » بالقوة اللازمة للهروب من جاذبية الأرض ، تماما كما تخيلها « فيرن » عندما فرت كبسولته من الجاذبية الأرضية وهى مندفعة من الأرض بقوة عظيمة .. ولعل الأغرب أن « فيرن » صوب كبسولته نحو القمر بنفس الطريقة التى صوبت بها هيئة « ناسا » NASA مركبة « أبوللو ١١ » نحو النقطة التى حددت لها على القمر ..

.. ووصف « فيرن » لحظة انطلاق الكبسولة (كما تخيلها فى عام ١٨٦٥) ، بهذه العبارات : « وزلزلت الأرض زلزالها ، وانطلقت الكبسولة تشق طريقها نحو السماء ،



جول ڤيرن .. فى
أخريات أيامه

وصوت الرعد يصم الآذان ، وكأن بركانا قد انفجر فجأة ، فالتهبت السماء ، وظهرت كرة من النيران ، وتراكمت حولها الأبخرة وسحب الدخان .. »

وهذا ما حدث عند أطلاق كبسولة « أبوللو » ..

ولم يهبط رجال « فيرن » على سطح القمر ، لأنهم ارتكبوا خطأ بسيطا ، وكان ذلك من حسن حظهم ، لأن المؤلف لم يمدهم بأردية فضاء خاصة .. ولكن « فيرن » العظيم أمدهم بمحركات صاروخية مثل المحرك الصاروخى الذى استخدمه رواد « أبولو ١١ » عند عودتهم من القمر الى المحيط الهادى !

.. وأخيرا ، منذ أسابيع ، احتفلت قرية (آمى) بفرنسا بابنها البار « فيرن » ، ومنحت ـ فى هذه المناسبة ـ كلا من « آرمسترونج » و « كولنز » و « ألدرين » التقليد المعروف بأن يصبحوا « مواطنين لها » ، تماما مثل سلفهم العظيم « جول فيرن » .

الحياة الجنسية عند الإغريق

للباحث الاجتماعى

"هانز ليشت"



SEXUAL LIFE IN ANCIENT GREECE

BY: HANS LICHT

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

لـكى تفهم قوما .. ادرس حياتهم الجنسية

النوازع الجنسية للانســـان ، تضفى أضواء على معظم نواحى سلوكه وتصرفاته ، وعلى مختلف نشاطاته الفنية والادبية والذهنية بوجه عام ..

لذلك كان لهذه النوازع ـ وما يصحبها أو يترتب عليها من عادات وتقاليد ـ دور كبير فى دراسة حضـــارة أى شعب ـ أو أية أمة ـ وثقافتهـــا .. ولعل الدراسة التى قام بها البروفيسور « هانس ليشت » ، خير مثال لذلك . فان الحضارة الغربية الراهنة ، أخذت الكثير من فنونها وفلسفاتها ومثلها الاخلاقية ونظرياتها السياسية عن الاغريق ، شعب اليونان القديمة . لذلك كان لزاما ـ لادراك وتقييم الحضارة الغربية المعاصرة ـ أن نلم بالحياة الجنسية لدى الاغريق، ومكانة المرأة فى حياتهم .. مكانة المرأة من الرجل ، ومن البيت ، ومن المجتمع ، ومن الدولة .. المسائل الجنسية فى الدين وفى الادب .. البغاء ، والانحرافات الجنسية عند الرجل .. البغاء وأثره فى النهضة الفكرية !!

كل هذه النواحى ، عالجها البروفيسور « ليشت » فى دراسته ، بأسلوب رشيق مشوق ، يمزج الفائدة الثقافية بالتسلية . . وفى الصفحات التالية ، نقدم الحلقة الاولى من هذه الدراسة ، ونرجو أن نتبعها بحلقات أخرى ..

الحياة الجنسية عند الاغريق

◉ **بالرغم** من أن الشباب ومباهجه ـ ومن بينها الحب بوجه خاص ـ كانت أهم عناصر الســعادة الكبرى لـدى اليونان ، فان هناك عناصر أخرى كانوا يتطلعون اليها لتحقيق السعادة ، ومنها : الزوجة ، والولد ، والشهرة ، والظفر فى

الحرب . والسمعة المشرفة لصاحبها ، والصحة . . وان تباينت آراء كتابهم وفلاسفتهم فى أى هذه العناصر أولى بالتقديم على سواه ! . . وكان الشاعر « ثيوجينس » أول من وضع الصحة كأعظم سعادة يجدر بالانسان أن يسعى من أجلها ، ثم أردفها بـ « الظفر بما يحب المرء » . . ويبدو – لأول وهلة – ان الشاعر تعمد أن يجعل عبارته « الظفر بما يحب المرء » مبهمة لكيلا يقطع بما اذا كان يعنى « الحب » بمعناه المعروف ، أو « الحب » بمعنى الرغبة فى اقتناء أشياء أو تمنى تحقيق أمور مبتغاة . ولكن الأرجح أن « ثيوجينس » قصد الحب بمعناه الأول ، وانما تعمد الابهام لأن الاغريق كانوا يعرفون من الحب نوعين : الحب الذى يربط رجلا وامرأة ، والحب الذى يربط اثنين من جنس واحد . .

ومهما يكن الأمر ، فليس من شك فى أن الاغريق كانوا يضعون الشباب والجمال والحب فى مقدمة ما يشتهى لتحقيق السعادة . . وكان شعراؤهم يتغنون بأن : « الصحة أفضل ما يشتهى الانسان الفانى ، يليها الجمال الشخصى الفاتن ، ثم الثروة المكتسبة بدون غش ، ثم أن يكون المرء الأنضر شبابا بين أصدقائه » .

ويرى كثير من المتعمقين فى دراسة الاغريق ، أن الثقافة الاغريقية كانت « أغنية » مقصورة على اطراء « هيدون » ، أى الاستمتاع البهيج بالحياة ، وأحلى مباهج الحياة هو الحب . ولقد كانت الشهوات الحسية العارية فى أعمق بذور طبيعتهم ، وان لم يطلقوها الى درجة الوحشية أو البهيمية ، كما فعل الرومان ، بل جعلوا منتهاها النشوة والحبور . ومن هنا نرى السر فى أن كبار المفكرين الاغريق كانوا يقرون حق الانسان فى المتع الحسية . ولم يدع « سوفوكليس » الى امتداح الشيخوخة « لأنها تحرر المرء من ربقة الشهوات الحسية » الا عندما طعن فى السن !

الجنس .. حتى بين الآلهة !

● **وليس** أدل على هذا ، من أن الشعر اليونانى القديم ـ منذ هوميروس ـ لم ينزه الأرباب والآلهة الاغريقية عن الاستسلام لشهوة ارضاء الحواس الجنسية . فالربة « هيرا » ـ فى « الياذة » هوميروس ـ عمدت الى فتنة زوجها « زيوس » بتشويقه واثارة رغبته .. ولم تكتف بما أضفته على نفسها من زينة ، بل استعارت من الربة « افروديت » حزامها السحرى : « حزام الحب والشبق الذى يخضع بسحره قلوب كل الآلهة وكل المخلوقات الفانية على وجه الأرض » .. **ويصف « هوميروس » الحزام بأنه كان يحتوى على كافة فنون الغواية وطرق المتع الجنسية ، مما يسلب الحكيم عقله . وحاولت « هيرا » ـ بعد ذلك ـ أن تغرى الرب « هيبنوس » ـ اله النعاس ـ بأن ينيم « زيوس » ، بعد أن تحظى معه بكل لذائذ الحب ، حتى تنفسح لها الفرصة لمساعدة الاغريق الذين كان « زيوس » يوشك أن ينصر الطرواديين عليهم فى الحرب المعروفة ..**

ولقد أفرد « هوميروس » جزءا ليس بالبسيط من الكتاب الرابع عشر من « الالياذة » ، لوصف ما دار بين « هيرا » و « زيوس » من لقاء .. كما أفرد شطرا من الكتاب الثامن من « الأوديسة » لوصف ما كان من الربة « أفروديت » ، اذ انصرفت عن زوجها القمىء « هيفايستس » لتغرى « آريس » ـ رب الحرب الجميل ، الشاب ، القوى ـ وتندمج معه فى غرام غير مشروع .. فما كان من الزوج المصدوم الا أن دعا الآلهة جميعا ، وأراها العاشقين عاريين وقد غابا فى عناق شهوانى .. وبدلا من أن تثور آلهة الاغريق للمشهد الفاضح ، قال ابن كبير الآلهة « ابوللو » للاله « هرمس » ـ ابن زيوس ـ ما معناه : « ألا تحب ـ اذا اتيح لك ـ ان تضاجع

افروديت الذهبية ؟ » .. **هـذا بالرغم من أن افروديت ربة الحب كانت زوجة ، وكانت ـ فى ذلك المشهد ـ تخون زوجها فتهدر الفضيلة الزوجية والوفاء الزوجى ! .. ولكن « بهجة الاشباع الجنسى » أعمت الآلهة عن « بشاعة الخطيئة » !**

ولقد كتب الفيلسوف « هيراكليدس بونتيكس » ـ وهو من تلاميذ أفلاطون ـ كتابا عن « اللهو واللذة » ، قال فيه ان الترف فى الحياة ـ لا سيما فى الخلاعة والمتع الجنسية ـ حق مقصور على الطبقات الحاكمـة ، فى حين أن الشغل والكدح نصيب الفقراء والعبيـد .. وهكذا أدخل « الجنس » فى الحقوق التى تفرق بين الطبقات !!

و « المتعة » كغاية حقيقية فى الحياة ، كانت شعار مدرسة فلسفية انشأها « اريستيبوس » . ولعل فى الفقرات السابقة ما يكفى لاظهار مدى ما كانت « الملذات الحسية » تحتله فى ثقافة الاغريق .

المرأة والزواج عند الاغريق

⊙ **خطأ** ما يقـال من أن مركز المرأة المتزوجة ـ عنـد الاغريق ـ كان وضيعا . والواقع انهم كانوا من أول الشعوب التى أخذت بالفكرة الحديثة ، التى تقول ان المرأة صنفان : **أم ، ومحظية !**

ولم يخلع أحد من التكريم على الصنف الأول ـ أى الأم ـ قدر ما خلع الاغريق ، اذ كانوا يعتبرون أن المرأة تحقق غاية حياتها عندما تصير أما ، فكانوا يعهدون اليها بمهمتين همـا أرقى المهام : تدبير الشؤون العائلية ، وتربية الأطفال الى أن تتزوج البنـات منهم ، والى أن تستيقظ الفردية الروحيـة للنفس لدى الذكور . **وهـكذا كان الاغريق يرون أن الزواج وسيلة الى غاية ، هى توفير جيل من الأبنـاء الشرعيين يخلف**

الجيل الذى سبقه ، الى جانب أن الزواج يوفر ادارة موثوقا بها لتدبير شؤون البيت والأسرة . ولهذا كانت للمرأة السيطرة الكاملة على هذه الشؤون .

ولقد يتساءل أبناء العصر الحديث : ألم تكن حياة كهذه تحرم المرأة من النشاط الاجتماعى ، وتلقى بها الى عزلة مملة ؟ .. والجواب بالنفى ، لأن المرء لا يهفو الى أشياء لا يعرفها ، فضلا عن انها كانت تأخذ المهمتين الموكولتين اليها — البيت والنشء — مأخذ الجد والفخر . وان الزواج والمرأة ليترددان — فى أقدم ما سجل من آداب الاغريق — بكثير من التمجيد والاعزاز اللذين لا يخطران ببال . **وايرجع من لا يقتنع بهذا القول ، الى « الاوديسة » ، وليقرأ الدور الذى قامت به « بنيلوبى » زوجة « اوديسيوس » ، وكيف ظلت وفية لعهده طيلة السنوات المضنية التى غابها عنها ، حتى اذا آذى مشاعرها مسلك المعجبين بها — ممن راحوا يخطبون ودها — استمدت من ضعفها قوة ، وانبرت لهم فى جلال الملكة التى اهينت ، فردتهم الى حدودهم بكلمات ماكانت لتصدر الا عن امرأة تعتز بمكانتها كامرأة .**

وما كانت أشعار « هوميروس » لتزخر بالصور الرائعة عن حياة المرأة ، لو أن المرأة الاغريقية كانت شقية بنصيبها .. ولقد أشار « اريسطوطاليس » الى ان أشعار « هوميروس » تبين أن الرجل كان يشترى عروسه من أبويها ، بما يقدم من هدايا .. ولكن من واجبنا أن نشير الى أن الاغريق كانوا يعتبرون البنات غير المتزوجات من أغلى أعضاء البيت ، ومن ثم فلابد من تعويض قيم ، اذا أريد انتزاعهن من البيت عند الزواج .

الخيانة الزوجية أبشع ذنوب المرأة

ومن ناحية أخرى ، كان لخيانة الزوجة دور كبير فى

الأدب الاغريقى القديم .. حتى ان الحروب الطروادية قامت على ما قيل من أجل خيانة « هيلين » لزوجها « منيلاوس » ، وانطلاقها الى بلاد أجنبية وراء « باريس » الفاتن .. كما روى « هوميروس » قصة « كليمتيمنسترا » ـ زوجة « اجاممنون » ـ التى استسلمت لغواية « ايجيستوس » سنوات غياب زوجها الطويلة ، ثم ذبحت هذا الزوج ـ عند عودته ـ بعد أن تظاهرت بالابتهاج لرؤيته !

ومع ذلك ، فان تصوير « هوميروس » للخيانتين ، يوحى بأن الغادرتين انما كانتا ضحيتين لغواية سلطتها عليهما « افروديت » .. ولكن هذا لم يكن كافيا لتبرير الخيانة الزوجية ، مما فتح الباب لتحقير الجنس الانثوى ، ولظهور « كارهى النساء » فى الثقافة الاغريقية .

واذا كانت أشعار « هوميروس » قد صورت نساء المشاهير وعلية القوم ، فان اشعار « هسيود » تؤكد ان نساء الفلاحين والرعاة والصيادين ـ ومن اليهم ـ لم يكن أقل حظا من نساء الطبقة الراقية .. مما يعزز أن المرأة الاغريقية كانت تستمتع بحياة كريمة . ويغدق « هسيود » أرق الكلمات ، اذ يصف الفتاة التى لم تتزوج بعد بأنها « تبقى فى البيت بجانب امها العزيزة ، لأنها لم تكتسب بعد خبرة بفنون أفروديت الذهبية » .. وبينما يتعرض الرجال ـ خارج البيت ـ للعواصف الهائجة ، والبرد الزمهرير ، تنعم هى بحمام ساخن فى حجرتها الكاملة التدفئة ، وتزيد من ليونة والتفاف أعضاء جسمها العذرى اذ تدلكها بزيت البلسم ..

على أن هذا الشاعر ـ الذى نشأ فى بيئة ريفية ـ لم يغفل أن بين النساء من هن صالحات ، وبينهن الفاسدات .. « فالزوجة الصالحة ثروة ثمينة ، أما الشريرة فهى أسوأ عذاب » .. وقد خلع كل سوء وشر فى العالم ، على امرأة أورد

ذكرها فى كتابه « أعمال وأيام » ، هى « باندورا » الحمقاء المغرورة ، التى صبت من صندوقها على الجنس البشرى كل الشرور .. ولم ينس أن يحذر الفتيات الساذجات من الغرور الذى يقود الى الخلاعة ، والذى يغريهن بأن يضاعفن مفاتنهن بحركات خليعة لمؤخراتهن ، وبتسليط فتنة « أعضاء الشباب » ـ أى الأعضاء المثيرة جنسيا ـ على الرجال ..

المرأة بين البيت والمجتمع

وعلى مر الأعوام ، ازداد تركز الثقافة اليونانية على الذكور ، حتى ان الحديث عن التعليم اقتصر على الصبية والغلمان .. وحتى لقد قال « هيبوليتس » فى كتابه عن « يوريبيدس » ان المرأة المتزوجة لا ينبغى أن تكون أمهر وأحذق مما يناسب مهمتها فى الحياة . لذلك استولى على الاغريق الاقتناع بأن أصلح مكان للمرأة والفتاة ، هو قسم « الحريم » فى البيت ، حيث لا حاجة بهما الى كتب العلم !.. ولما كان الحديث والنقاش والجدل هى أشهى المتع لدى الرجال ـ فى اللقاءات الاجتماعية ـ فان النساء لم يلبثن ان شعرن بنقص كفاءتهن فى هذا المضمار ، فازددن انزواء فى عزلة « الحريم » .. اللهم الا فى (اسبرطة) غالبا !

ومع ان الزواج كان يتيح للمرأة قدرا أوفر من الحرية ، فان « البيت » ظل المملكة التى يجب الا تتجاوزها .. و « المرأة التى لا تبقى فى بيتها ، تجتلب اللوم لنفسها » !.. بل اننا لنستنبط من الثقافة الاغريقية ، انه لم يكن يليق بالمرأة أن تخرج من بيتها ، الا اذا بلغت سنا لا يتساءل عندها من يراها عن « زوجة » من هى ، وانما « أم » من هى .. وأن الفتاة غير المتزوجة تحتاج الى مراقبة وحراسة .

وكان من التقاليد أن المرأة اذا اضطرت للخروج من بيتها وجب أن يكون فى صحبتها رجل مسن من الأسرة ، أهل للثقة

.. بل ان « يوربيديس » كان ينصح الأزواج بتجنب السماح لزوجاتهم باستقبال نســاء أخريات فى بيوتهن ، لأن « بين النساء معلمات لتلقين كل سوء وشر » .

وصحيح ان هذا الوضع للمرأة لم يكن قائما فى كل بلاد اليونان ، ولكنه كان قائما فى كثير من الأماكن ، وفى (أثينـا) بالذات .. ونحن لا نملك هنا أن نخوض فى التفصيلات ، لأن همنا الأول هو أن نرسم صورة للحضارة الاغريقية فى أوسع نطاقاتها .. صورة نعتبر فيها بلاد اليونان وحدة متماسكة برباط اللغة والعادات ، دون أن نتجشم عناء الخوض فى نواحى الاختلاف ، فى كل مناسبة .. وما أبعد الفوارق ، لو أننـا انسقنا لبيانها . **فبينما كان كثير من الاغريق يحسبون نساءهم فى « الجينايكونيتس » ـ أو « الحريم » ـ فى غرفة موصدة الباب ، محكمة الحراسة ، يقف على مدخلها كلب ضخم شرس .. نجد أن أهل (ليديا) ـ على ماذكر هيرودوتس ـ لم يكونوا يرون أى حرج فى أن تمارس الفتاة البغاء لتكسب نفقات ثيابها ! .. ونجـد أن نساء (اسبرطـة) كن يرتدين ثيابا مشقوقة الى ما يقرب من الخصر ، بحيث تكشف عن معظم أفخاذهن حين يمشين ..**

المهم ان العزلة التى فرضت على المرأة الاغريقية ـ بوجه عام ـ أدت الى سذاجة فى شخصيتهـا ، وضيق فى تفكيرها وعقليتها .. حتى لقد ورد فى كتاب لبلوتارخ أن غريما للملك « هييرو » عيره بأن لفمه رائحة كريهـة ، فأسرع الملك مغضبا الى زوجته ، يؤنبها لأنها لم تنبهه الى ذلك .. وبكل بسـاطة وسذاجة ، أجابتـه الزوجة : « لم أر داعيا لتنبيهك ، فقد كنت أظن أن لجميع الرجال هذه الرائحـة » ! .. على أنه بقدر ما يزخر الأدب الاغريقى بحكايات من هذا القبيل ، نجده حافلا بحكايات تبين أن الرجـال كانوا يحترمون الزوجات ،

وكان الواحد منهم يميز زوجته بأن يلقبها « أم الأولاد » ، بينما يطلق على سواها لقب « المرأة » ـ مجردا من كل لباقة ومجاملة ـ دون تفريق بين الملكة أو المرأة العادية .. ولا نصادف لقب « سيدتى » أو « مولاتى » للملكة ، الا بعد قيام الامبراطورية الرومانية ..

السبب الرئيسى للزواج

● **وكانوا** يقسمون النساء الى ثلاث طبقات : « الغوانى المحظيات للهونا ومتعتنا ، والجوارى للخدمة اليومية ، والزوجات ليحملن لنا أطفالا وليدبرن شؤون بيوتنا باخلاص » !

على أن مكانة « الجوارى » لم تكن مقصورة على الخدمة ، فنحن نجد فى آثار الاغريق الأدبية أن « الجوارى » كن رقيقا، لأصحابهن الحق فى بيعهن ان شاءوا .. كما نجد انهن كن يذكرن مع الأم والزوجة والأخت والابنة ، مما يوحى بأن العلاقة بين الرجل وجاريته ربما كانت على غرار علاقة الرجل بزوجته .. يؤكد هذا ، أن تعدد الجوارى فى حوزة الرجل ، لم يكن شائعا قبل العهد البطولى الذى وصفه « هوميروس » فان الغالب أن يمتلك الرجل جارية واحدة .. ومن المحتمل انه لم يكن يجعلها كالزوجة ـ لتحمل له أطفالا ـ الا فى أوقات الحاجة ، كفترات الحروب ..

وكان السبب الرئيسى الذى يحدو بالرجل الى الزواج هو الرغبة فى « انجاب نسل شرعى » .. وكان الأمر فى (اسبرطة) يذهب الى أبعد من هذا المدى ، اذ لم يكن من غير المألوف ـ كما ذكر « بلوتارخ » ـ ان « يحول الزوج حقوقه الزوجية لرجل أقوى منه فحولة ـ يستطيع أن ينجب أطفالا يمتازون بالجمال والقوة ـ دون أن يؤثر هذا على الزواج » !

.. وقبل أن نعقب على هذا ، يسبقنا « بلوتارخ » فيذكر ان

الزواج الاسبرطى كان أشبه ب « توليف الخيل » ، من حيث ان أهم ما فيه هو انجاب سلالة تمتاز عددا ونوعا !

ويمتلىء الأدب الاغريقى القديم بقصص السخرية من الأزواج الذين على هذه الشاكلة ، أو الذين كانوا يتخذون زوجاتهم شباكا للايقاع بالأغراب وابتزاز نقودهم ..

الزواج فرض يلقى تاركه التحقير

غير أن الزواج كان يعتبر فى (أثينا) - وفى بلاد اليونان بوجه عام ، اذا جاز لنا أن نصدق « أفلاطون » ، فى كتابه « القوانين » - أداء لواجب مفروض نحو الآلهة ، اذ يجب على المرء أن ينجب أولادا ليكونوا خداما وعبادا للآلهة . كذلك كان يعد أداء لواجب أدبى ، هو ضمان بقاء الدولة بانجاب مواطنين لها . على أننا لا نجد معلومات - يوثق بها - عن قوانين تفرض الزواج على الرجل ، اللهم الا فى (اسبرطة) .. واذا كان « أفلاطون » قد اتجه الى جعل الزواج فرضا ، يعاقب الرجل - اذا لم يؤده - بالغرامات وبفقدان الحقوق المدنية ، فانه قد اتفق ، فى هذه النظرية ، مع الاسبرطيين الذين لم يكونوا يعاقبون الأعزاب فحسب ، بل كان عقابهم يمتد - على ما أورد « أريستون » - الى الذين يتزوجون فى سن متأخرة ، والى الذين يعقدون زيجات سيئة ، كتلك التى لا تتوفر فيها الكفاءة بين الزوجين ، أو التى لا تثمر أطفالا ! .. **وكان القانون الذى وضعه المشرع الكبير « ليكورجوس » ينص على عقوبات لغير المتزوجين ، منها : « الحد من الحقوق المدنية ، فلا يسمح لهم بالاشتراك فى مهرجانات الغلمان العرايا » .. وكانوا فى الشتاء « يؤمرون بأن يطوفوا بالأسواق وهم يرددون أغنية تحط من شأنهم ، ويعلنون أنهم يستحقون ما يصيبهم ، جزاء لعدم طاعتهم قوانين بلادهم » .. كذلك كانوا يحرمون من الاحترام والتوقير الواجبين على الصغار نحو الكبار !**

ولا يبدو أن هـذه القوانين كانت كبيرة الأثر ــ حتى فى (اسبرطة) ذاتها ــ اذ أن عدد الرجال غير المتزوجين فى اليونان ، كان كبيرا .. فكثير من الرجال كانوا يؤثرون الاحتفاظ بحريتهم وراحة بالهم ، التى تعكرها مسئوليات وهموم الزوجة والأطفال . وبعض الرجال كان يعرض عن الزواج نتيجة كراهية طبيعية للنساء عامة !

ولعل فيما أجراه « بلاوتوس » على لسان « بيريبلكتومينوس » ــ بطل احدى تمثيلياته ــ خير تصوير لذلك ، فهو يقول لضيفه « باليستريو » :

« ــ الحمد لله الذى وفر لى أسباب اكرامك فى بيتى .. كل واشرب ما شئت فى صحبتى ، واستمتع أكمل استمتاع .. اننى أملك حريتى ، وأحب أن أعيش على هواى .. اننى غنى ، وكان بوسعى أن أتخذ زوجة ذات ثروة وجاه ، ولكنى لا أميل الى ايواء « عنصر عكننة » فى بيتى !

« باليستريو : كيف يا سيدى ؟ .. ان انجاب الأطفال واجب بهيج ، كما تعرف .

« ــ أقسم أن مباهج الحرية أكثر متعة .. من المفرح جدا أن يتزوج المرء من زوجة صالحة ــ اذا وجدت على الأرض بقعة يمكن العثور فيها على واحدة ــ ولكن ، أأحضر لبيتى امرأة لن ينطق لسانها قط بعبارات كهذه : « اشتر لى بعض الصوف يا زوجى ، لأصنع لك وشاحا دافئا وبعض ثياب لا تشعرك ببرد الشتاء » .. لن أسمع شيئا كهذا من زوجة ، ولكنها ستوقظنى قبل صياح الديك لتقول : « اعطنى نقودا يا زوجى ، لأقدم هدية لأمى .. اعطنى نقودا أقدمها للعرافات والساحرات فى عيد منيرفا ، ولمفسرى الأحلام ومستطلعى الغيب .. وهناك صانعة الأزياء ، لابد أن أكافئها بما يليق .. والقابلة « الداية » كذلك ، فهى تحتج لأننى لا أرسل لها من

المنح الا القليل .. ثم ، ألن ترسل شيئا للممرضة التى تعنى بالعبيد المولودين تحت سقف دارك ؟ » .. هذه الاتجاهات المسرفة لدى النساء ـ وكثير من أمثالها ـ تمنعنى من أن أتخذ زوجة تعذبنى ... »

تبنى الأطفال وبيعهم

● الى جانب كثرة الرجال ـ الذين كانوا على هذه الشاكلة ـ فان الاناث كن أغلبية ، من حيث العدد ، فى اليونان . اذ أن الحروب كانت تلتهم صفوة شبابها . لذلك فلسنا نغالى اذا قلنا ان « العوانس » لم يكن قلة نادرة ، وان لم يتجشم المؤلفون اليونانيون عناء الاسهاب فى الحديث عن هذه الطائفة ، اذ كانت المرأة ـ بوجه عام ـ ذات دور ثانوى فى الأدب الاغريقى .. وان كان « أريستوفانيس » قد أجمل أمرها ، على لسان بطلة مسرحيته « ليسيستراتا » اذ تقول : « ولكن عمر المرأة قصير ، وما لم تحسن استغلاله فلن يرغب أحد فى الزواج منها ، وتظل جالسة ترقب الطوالع » !

واذ كان السبب الرئيسي للزواج هو « انجاب نسل شرعى » ، فان الأدب الاغريقى يحفل بذكر « الرجل المتزوج العقيم » .. الذى كثيرا ما كان يلجأ الى « التبنى » ، متعللا بالرغبة فى أن يترك خلفه من يحمل القرابين وآيات الحب الى القبور !

ويقول بلوتارخ أن شريعة « ليكورجوس » ـ فى اسبرطة ـ كانت تقضى بوضع الأطفال الضعاف والمشوهين فى أخدود بأعلى جبل (تايجيتوس) ، وتركهم معرضين لعدوان الطبيعة .. ولكن شيئا من هذا لم يعرف فى (أثينا) ، لا سيما فيما يتعلق بالبنات .. **فالأطفال الذين كان أهلهم يزهدونهم ـ لعيوب فى تكوينهم ـ كانوا يوضعون فى قوارب كبيرة من الفخار ، بطريقة تكفل أن يعثر عليهم من قد يكونون محرومين**

من الأطفال ، فيعطفوا عليهم ويأخذوهم . كذلك كان يحدث أن يبيع أناس أطفالهم ، لا سيما للزوجات المحرومات اللائى يخشين أن يفقدن أزواجهن من جراء عدم الانجاب .

وقبل أن ننتقل الى « عادات الزواج » ، نذكر ذلك الحديث الذى وجهه بطل « اكسينوفون » الى عروسه ، بعد زواجهما بقليل ، من أن الزوجة يجب أن تكون عفة طاهرة ، عاقلة ، تعرف كيف تصنع الثياب ، وكيف تغزل الصوف ، وتعطى لكل خادم ما يناسبها من أعمال البيت . وعليها أن تحافظ على ما يكسبه زوجها بعمله من مال ومقتنيات ، وأن تحسن استخدام ثروته . أما مهمتها الرئيسية فهى تغذية وتربية الأطفال . كما كان عليها أن ترعى صحة ورفاهية كل من فى بيتها ـ من سادة وعبيد ـ أناثا وذكورا .. ومن واجبها أن تعلم أفراد الأسرة كل ما يجدر تعلمه ، وأن تحكمهم وتربيهم بحكمة ..

عادات الزواج لدى الاغريق

● **كان** الاغريق يدبرون زيجاتهم بعقلية حسابية : فلم تكن الخطبة الطويلة معروفة عندهم ، وكان لمركز الأسرة و « للدوطة » ـ عند اختيار العروس ـ نصيب أوفر مما للجمال والخصال .. على أن هذه لم تكن بالقاعدة الجامدة ، فاذا ما بهر جمال ابنة رجل فقير شابا غنيا ، كان أبوها يسارع الى اقناعه بالتجاوز عن « الدوطة » الضخمة ، كما فعل « بوكليو » فى قصة « أولولاريا » للشاعر « بلاوتس » ، اذ قال للشاب :

ـ اليك الموقف كما أراه يا مجادورس : انك غنى ، ذو مكانة . أما أنا ، فرجل فقير . واذا قدر لى أن أزوجك ابنتى ، فاننى أتمثل انك ستكون الثور ، وأنا الحمار . فاذا أسرجنا

معا الى مركبة ، فلن أقوى على جر نصيبى من الحمل ، واذ ذاك سأقع فى الوحل ، فى حين أنك لن تحفل بى . انك تفوقنى بكثير ، وسيوسعنى قومى انتقادا . ولو قدر لى أن أقع ، فلن يقبلنى قومى ولا قومك بينهم .. انها لمسألة محفوفة بالمخاطر ، أن يحاول الحمير التسلق الى طائفة الثيران !

ولا يحتمل أنهم كانوا يسمحون للخطيب والخطيبة بأن يكثرا من الالتقاء فى خلوة . يدل على هذا ما كان يطالب به « أفلاطون » ـ لتفادى الغش والخداع ـ من السماح للطرفين بمزيد من الحرية فى التلاقى . ومن ثم ، فسرعان ما كان الزوج يرى الزواج قيدا ثقيلا ، وتجد الزوجة أن الزواج مخيب لآمالها ، وانها كانت أسعد حالا فى بيت أبيها .. أو على حد تعبير « سوفوكليس » فى بعض كتاباته : « فان الجهل يكسبنا مسرة . أما حين ننضج ، ونزداد معرفة ، فاننا نساق بعيدا عن آلهتنا وآبائنا وأقاربنا ، ونباع .. بعضنا لأجانب ، وبعضنا لهمجيين ، وبعضنا لبيوت غريبة .. وبمثل هذا الحظ ـ وبعد ليلة واحدة تربط بيننا ـ يتحتم علينا أن نرضى ، وأن نرى أن هذا هو الخير » !

الخاطبة .. فى دورها الخالد !

● **وكانوا** يحسبون لحكم الطبيعة حسابه ، فالمرأة أسرع ذبولا من الرجل ، لذلك كان ينبغى أن تكون العروس أصغر من العريس سنا ، بدرجة مناسبة .. وبالتالى ، اذا لم يقدر للأب أن يجد زوجا لابنته ـ وهى فى سن مناسبة ـ كان عليه أن يلجأ الى احدى الخاطبات ، اللواتى كانت مهارتهن تتجلى فى ابراز صفات الزوجة ومزاياها .. ويبدو من كتابى : « أكسينوفون » و « أفلاطون » ، أن مهنتهن لم تكن تحظى بسمعة فوق مثار الريب ، فمنهن من كن يدبرن اللقاءات

الغرامية ، التى قد تفقد فيها الفتـاة عفتها ، دون أن تظفر بالجانى زوجا !

واذا قدر للخطبة أن تتم ، كان مقدار « الدوطة » يحدد بالاتفاق بين الطرفين ، اتماما للصيغة القانونية . وأحيـانا ، كان أهل الخير ـ أو الدولة ـ يوفرون « الدوطة » للعروس الفقيرة . ويروى « بلوتارخ » ان كلا من ابنتى « أريستيد » تسلمت ٣٠٠٠ دراخما ـ أى حوالى ١٣٥ جنيها مصريا ـ لهذا الغرض .

ولسنا بحاجة الى أن نذكر أن الزوجة كانت ملزمة ـ الى جانب الدوطة ـ بالمفروشـات ، والملابس ، وأثاث البيت ، والعبيد أحيانا . ولقد أورد « سولون » فى تشريعه ، ان الجزء النقدى من الدوطة يجب أن يستبعد ، لكى لا تطغى المـادة على الغاية السامية من الزواج . ولكن هذا القانون ظل ـ فى الغالب ـ حبرا على ورق .. كما يؤثر عن « بلوتارخ » قوله ان الأغلال أفضل للرجل من أن يغدو رقيقا مستعبدا لدوطة زوجته !

العريس يختطف عروسه ويغتصبها !

● **وكان** الشتاء عادة هو أنسب فصل للزواج ـ وان لم نجد فى التراث الاغريقى سببا يبرر هذا ـ وكان أول شـهور الشتاء يدعى « جاميليون » ، وهو اسم مشـتق من كلمة الزفاف باليونانية ، وكانت المعتقدات الخرافية تدعو لتجنب فترة تناقص القمر ـ بعد اكتمال البدر ـ لاتمام الزفاف .

وهناك طقوس كانت تؤدى قبل الزواج ، أهمها تقـديم القرابين للآلهة التى ترعى الزواج ، لا سيما الربة « هيرا » والرب « زيوس » .. وفى يوم الزفاف بالذات ، كان لزاما أن تقدم قرابين أو تضحيات (تقدمات) للربة « أفروديت » .. ويقول « بلوتارخ » ، ان التقاليد ـ فى بلدة (تيسبيا) ـ كانت

تقضى بأن يأوى العروسان الى معبد « ايروس » ، ليستمدا من تمثال الرب السعادة والبركات . وفى كثير من الأماكن كانت العادة أن تقدم العروس على المذبح خصلات من شعرها — رمزا لانتقالها من مرحلة الصبا — وحزام عفتها ، رمزا لتحللها من البكارة ..

وكان يسبق هذه الطقوس — أو يعقبها — حمام العروس ، الذى كان يعهد الى صبى من جيران العروس باحضار الماء اللازم له ، من مكان خاص فى بلدتها .. وفى (اسبرطة) بالذات ، كان على العريس أن يختطف عروسه بعيدا — وفق خطة معروفة لوالديها — أثناء الاحتفال بالزواج ، ثم يغتصبها ويفض بكارتها .. وكان ينام ليله مع أصدقائه ، ثم يتسلل خلسة الى عروسه .. وهو فى خجل وخوف من أن يراه أحد من أهلها !

ويقول « بلوتارخ » ان العروس نفسها كانت تساعده فى ذلك .. « ولم يكونا يقتصران على فترة قصيرة ، بل كثيرا ما أنجب الزوجان أولادا قبل أن يتردد الرجل على مخدع زوجته نهارا » .. ومثل هذه اللقاءات لم تكن تعلمهما كبح النفس والاعتدال فى الشهوات فحسب ، بل انها كانت تساعد على اذكاء شوقهما ، وبالتالى على ممارسة اللقاء بكل قوة واستمتاع ، مما يساعد على انجاب أطفال أقوياء ، أصحاء !

موكب الزفاف وحملة المشاعل

● **واذا** كانت التقاليد السالفة متباينة من مكان الى آخر ، فان مأدبة الزفاف كانت عادة عامة فى كل أرجاء اليونان .. وكان لكعك السمسم مكانة خاصة فيها ، فكان يعهد الى صبى وسيم الخلقة أن يحمل كمية منه ويدور بها على الضيوف — وهو عارى الجسد ، مزدان بالاشواك وأوراق

شجر البلوط ـ مرددا : « لقد تجنبت الاثم ، ووجدت ما هو أحسن » !

وبعد الأكل وشرب الانخاب ، كانت العروس تحمل الى بيت عريسها فى مركبة تجرها الثيران ، أو البغال ، أو الخيل .. وتجلس فيها بين العريس وأصدق أصدقائه أو أعز قريب لديه .. وبعد بلوغها البيت ، كان محور عجلات المركبة يحرق أحيانا ، لكى تجنبها الآلهة أية رغبة فى مبارحة بيت الزوجية ! .. أما اذا كانت العروس أرملة تتزوج للمرة الثانية ، فكان العريس يبقى فى بيته ، بينما يرافقها اليه واحد من أخلص أصدقائه أو أقربائه .

وكانت المشاعل عنصرا لا غنى عنه فى مواكب العرس ، تشعلها والدتا العروس والعريس ، ويحملها أفراد يرافقون العربة على أقدامهم .. وكان ثوب العروس يصنع من قماش مزركش بالألوان ، فى حين أن ثوب العريس كان يتخذ من أغلى أنواع الصوف الأبيض .. وكذلك كانت أثواب مرافقى الموكب . وكان العروسان يتوجان بتاجين مزخرفين وملونين .. وتضمخ العروس بالعطور ، ويرفرف فوق رأسها وشاح أحمر اللون .

وبينما يردد مرافقو الموكب نشيد الزفاف ، يستقبل الناس العروسين ـ فى الطرقات التى يجتازها الموكب ـ بالتهانى وامارات الاغتباط .. ويحيط الشباب بالموكب وهم يرقصون على أنغام القيثارات والمزامير .

ليلة الزفاف .. ومخدع العروسين

● **وكان** الشباب والشابات يتنافسون لاعداد مخدع العروسين وتزيينه بالأزهار ، فى احتفال يزيد من اهتمام القوم به ، انهم كانوا يعتقدون أن ربة الحب تهبط بنفسها ـ وهى

تتألق جمالا وبهاء - لتتأمل حسن العروس ، وما للعريس من نضارة . فكان أصدقاء العريس ، وصديقات العروس ، يجتمعون فى بيت العريس ، وينهمكون فى اعداد المخدع واضفاء أبهى الزينات عليه . فاذا أقبل الليل ، احتفل المجتمعون بالمناسبة ، حول مأدبة حافلة .. حتى اذا لاح ضوء مشاعل موكب العرس ، انقسموا الى فريقين : فتيان وفتيات ، وأخذوا يتبارون فى الغناء لنجم الحب الوادع « هسبيروس »

وتبدأ الفتيات ، مرددات : « يا هسبيروس ، أنت أسوأ النجوم اللامعة فى السماء .. أنت تسرق كل ما لا تحيطه الرعاية العاشقة بحمايتها ، لذلك فان الحب يصبح يقظا وعلى حذر ، كلما أشرقت أنت .. »

.. ويتحداهن الفتيان ، فيمجدون النجم : « هسبيروس ، يا أجمل النجوم اللامعة طرا ، يا من تجلب كل ما كان الفجر قد أقصاه ، تجلب الشاة وتجلب الماعز ، وتجلب الابن الى أمه ، وتجلب الفتاة الى الرجل . صحيح ان كل فتاة تقول : « سأبقى دائما عذراء » ، ولكنها تفكر فى نفسها : أواه ، ليتنى أصبح زوجة صغيرة ! »

ويتراشق الشبان والفتيات بالأشعار والأغانى .. تعير الفتيات الرجال بأن الزوجات لا يجدن فى كنفهم سوى المتاعب النفسية وأعباء المسئوليات .. بينما يصف الشبان مدى حظ المرأة التى تتزوج ، فتجد فى زوجها العائل والمعين .. « فالكرم لا يثمر ما لم يحدث اللقاح .. وتعسا للعذراء التى لم تشعر يوما بلمسة العاشق ، فهى كالكرم المحروم » .

ولا يلبث العريس والعروس أن يتقدما الى القاعة المتألقة الأضواء ، فتنطلق من جميع الحناجر الهتافات : « مرحى للعروس .. مرحى للعريس ! » .. ثم يعود الشبان والشابات الى تطارح الشعر والأغانى . وفى هذه المرة ، يطرى الشبان

جمال العروس ويمتدحون حسنها وعفتها .. وتتغنى الفتيات بنضارة شباب العريس ومحاسنه .

العروسان فى « ليلة الاسرار »

● **ويظل** الغناء والرقص الى ساعة متأخرة من الليل ، ثم ينهض العريس فجأة ، فيحتضن العروس وهى تقاوم فى استحياء ، ويحملها بين ذراعيه — على سنن التقاليد البطولية — ويهرع الى المخدع ، يتبعه أخلص أصدقائه ليحمى باب المخدع من العذارى اللائى يحاولن استرداد واحدة منهن ، هى العروس .. وما أن يدخل العريس المخدع بعروسه ، حتى يوصد الباب بالرتاج ، ويهتف ساخرا بالفتيات : « ارجعن ، فما أكثر الفتيات ! » .. ولكنهن اذ يقتنعن بعدم جدوى اقتحام الباب والتغلب على الحارس ، يشرعن — وسط الضحك والصخب — فى أغنية حجرة الزفاف ، التى تتضمن معانى من هذا القبيل :

« ماذا يا عريس ، هكذا مبكرا تنام ؟ .. أتراك اشتقت الى وسادتك ، أو أنك أفرطت فى الشراب ؟

« اذا كنت تستسلم للنعاس مبكرا ، فمن الخير أن تنام وحيدا .. وأن تترك العذراء مع العذارى ، تأوى الى جانب أمها الحنون حتى الفجر !

« تحت غطاء واحد ترقد معك ابنة « زيوس العظيم » وقد أصبحت سيدة لا تقع العين لها على نظير .. »

وتطول الأغنية ، وتنطلق تجوس مجالات كثيرة ، ثم تنتهى بحديث طويل الى العذراء التى أصبحت زوجة ، يحثثنها فيه على اغراء العريس ، كما فعلت « هيلين » فاتنة الأبطال .. وأخيرا :

« فوداعا يا عروس ، ووداعا يا عريس .. ولتهبهمـا يا « ليثو » اطفالا كما تشاء ..

« ولتهبهما « سيبريس » حبا متعادلا متبادلا .. وليهبهما « زيوس » الرخاء ..
« ناما واستريحا .. وعلى أى الصدرين فلتتراقص أنفاس الحب ..
« ناما الآن ، ولكن اذا ما طلع النهار ، فلا تنسيا أن تهبا من الرقاد ..
« لأننا سنأتيكما مع الفجر .. وبمجـرد أن يرفع ديك عقيرته بالانشاد » .

على أنه لابد لأحلى ليالى العمر ـ « ليلة الأسرار » كما كان الاغريق يسمونها ـ من نهاية ، فليس الهناء المقيم من حظ البشر فى دنيا الفناء .. ومع مطلع اليوم التالى ، يستيقظ العروسان على الموسيقى والأغانى وهتافات الأهل والأصدقاء وهداياهم .. وفى ذلك اليوم ، تقام مأدبة كبيرة فى بيت والد العريس ، تمتاز بأنه ما من امرأة ـ حتى العروس ـ تحضرها !

المرأة فى البيت بعد الزواج

● **وتبقى** الزوجة بعد ذلك فى « الحريم » ، ولا تكون هناك حجرات مشتركة بين الزوجين ، عدا حجرة النوم ، وحجرة المائدة ـ مالم يستضف الزوج أحدا ـ فقد كانت عادة الزوجة الاغريقية ألا تحضر المآدب التى تقام فى بيتها ، والا اعتبرت « غانية » أو « جليسة » ! ..

وليس معنى هـذا ، أن المرأة الاغريقيـة كانت مهيضة المكانة ، مقضيا عليها بملازمة المطبخ ، ورتابة الأعمال المنزلية .. بل يكفى لادراك مدى تقدير الاغريق لها ، ما ورد على لسان أحد أبطال المسرحيات القديمة : « ان الله يتجلى لنا فى الأم ، أكثر مما يكشف عن نفسه فى أى شىء آخر » . وبرغم هذه العزلة الظاهرية ، فقد كانت هناك ثلاثة عوامل تسـاعد المرأة ـ فى أزهى العهود الاغريقية ـ على أن تحظى بتفوق مادى

وأدبى على الرجل : التفوق العقلى فى بعض الأحيان ، والنزوع الفطرى الى النفوذ متحالفا مع ما لطبيعة المرأة من رقة ولطف ، و .. الدوطة الكبيرة .

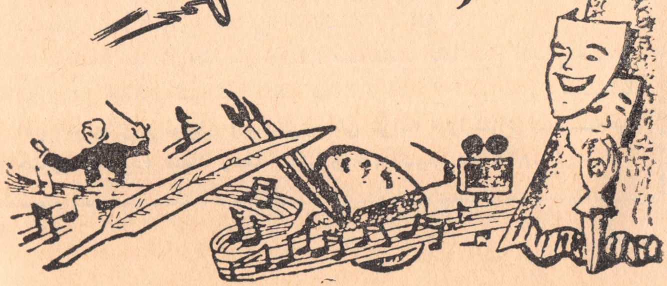
وكان بوسعنا أن نضرب مثلا بـ « أكسانثيب » زوجة « سقراط » ، لولا أن الأساطير والحكايات ظلمتها ، اذ أنها كانت زوجة رائعة ، لم تتجاوز قط الحدود المعينة للمرأة .. **على أن هناك « أومفيل » ـ ملكة ليديا ـ التى أوسعت « هرقل » اذلالا ، وهو أعظم وأمجد الأبطال .. فاضطرته الى ارتداء ثياب النساء ، وأن يجلس عند قدميها يمارس أشغال النساء ، بينما كانت هى ـ الملكة ـ ترتدى جلد أسد ، وتطوح بهراوة ضخمة فى الهواء ، فوق رأس البطل الذليل .. وتضع قدمها ـ الغائبة فى نعلها « الشبشب » ـ فوق عنقه . ومن ثم أصبح « الشبشب » رمزا للوضع المشين للزوج الذى يخضع لزوجته ، كما أصبح أداة للزوجات الشرسات .. لتأديب أزواجهن !**

ولسنا نجد فى تراث الاغريق ما يبرر اللوم والتثريب ، على رجل مل رتابة الحياة الزوجية ، فأخذ ينشد التغيير بين أحضان امرأة ذات ذكاء وثقافة ، أو فى مداعبات صبى أو غلام . ذلك لأن الاغريق ـ فى تلك العصور ـ لم يكونوا يتصورون أن مجرد الزواج معناه الحرمان من الاستمتاع بالجمال ، ولا كانت أية زوجة ترتقب هذا من زوجها .. وان كان بين الفلاسفة والمصلحين ، فئة قليلة العدد جدا ، طالبت بالمساواة بين الزوجين أمام القوانين الأخلاقية ـ مثل « ايسوقراط » ـ كما طالب « أريسطوطاليس » بحرمان الرجل من حقوقه المدنية « اذا ضبط وهو يجامع امرأة غير زوجته ، أو رجلا » .. على أن هؤلاء الدعاة كانوا قلة ، فلم تخرج دعواتهم الى حيز التنفيذ .

وفى العدد القادم حلقة جديدة من هذه الدراسة الممتعة



دراسات ومطالعات



أضواء جديدة على شخصية مؤلف «مدام بوفاري»

استطاع «كتابى» أن يحصل على صفحات مجهولة من حياة الاديب الفرنسى الكبير «جوستاف فلوبير» ، مؤلف الروائع الادبية التى خلدت اسمه بين أعظم أدباء القرن التاسع عشر ، وفى مقدمتها (مدام بوفارى) ، التى قدمت «مطبوعات كتابى» ترجمة أمينة كاملة لها ، فى عدديها : ٩ ، ١٠ .

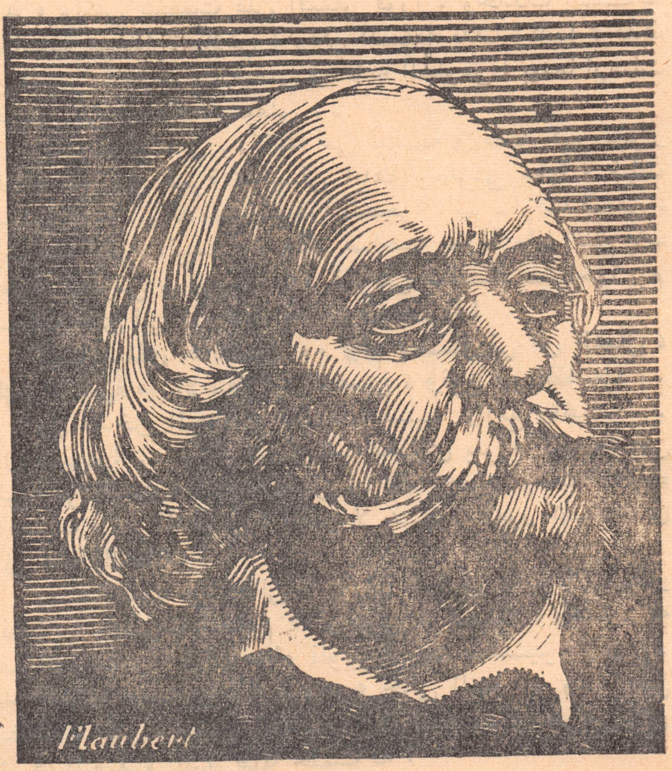
ومن هذه الصفحات المجهولة التى عثر عليها (كتابى) فى أحد الكتب النادرة ، اخترنا لك - فيما يلى - ما تعلق برحلة قام بها «فلوبير» الى مصر ، منذ ١٢٠ سنة ، أى فى سنة ١٨٤٩ على التحديد .. وهى صفحات تضمنت رسائل الى أمه وأصدقائه ضمنها أدق الاوصاف للمغامرات والمشاهدات والانطباعات التى مرت به فى الرحلة التى طاف خلالها بأرجاء مصر حتى أقاصى الصعيد ، وصور ببراعة ورشاقة ما كانت عليه الحياة - اذ ذاك - فى هذه البلاد التى طالما حلم بزيارتها .. وتتخلل الرسائل بعض صفحات من مذكرات «فلوبير» - أثناء الرحلة - ومما كتب زميله فيها «مكسيم دوكان» ، فى كتابيه «ذكريات أدبية» و «النيل ومصر والنوبة» ..

فتعال معى نعش مع «فلوبير» فى : بولاق ، والاسكندرية ، ورشيد ، وفى السفينة النيلية التى حملته الى الصعيد .. ثم نصاحبه فى مغامراته الغرامية مع «الغوازى» ونساء الهوى : مع «كوجك هانم» فى (اسنا) ، ومع الراقصة التى قضى ليلة فى مخدعها بأحد شوارع القاهرة الجانبية .. الخ .

ولنبدأ معه الرحلة من أولها : منذ قضى أياما قبل السفر مشفقا من وداع أمه - التى كان تعلقه بها «مرضيا» ! - حتى أرسلها الى أسرتها فى (نوجان) ، لتقوى على فراقه ، ولينتزع نفسه من حنانها الغامر ، فيبدأ رحلته باكيا فى ٢٥ أكتوبر عام ١٨٤٩ :

فلوبير.. في مصر!

صفحات نادرة من مذكرات الأديب الفرنسي الكبير
عن رحلته الطويلة في ربوع مصر، منذ ١٢٠ سنة



بقلم : حلمى مراد

لوعته لفراق أمه ، فى بداية الرحلة !

كان ذلك اليوم (الخميس ٢٥ أكتوبر) يوما فظيعا .. أسوأ يوم مر بى . ولم يكن مقررا أن يكون رحيلى قبل بعد الغد ، ولكنى صممت على السفر فوراً ، وحددت الساعة الخامسة موعدا لانطلاقى ، ولكن الساعة بدت وكأنها توقفت عن السير . ووضعت قبعتى فى قاعة الجلوس ، بينما أرسلت حقيبتى الى المحطة لتسبقنى ..

وتأهبت للرحيل .. كانت أمى جالسة فى مقعد كبير بجوار المدفأة .. وفى غمرة تدليلى اياها وحديثى معها ، قبلت جبينها فجأة ، واندفعت مغادرا الحجرة ، ثم تناولت قبعتى ، وأسرعت أبارح البيت .. ولكم صاحت معولة وأنا أغلق باب حجرة الجلوس ورائى .. لقد ذكرتنى ساعتئذ بصراخها يوم أمسكت يدى أبى فوجدته قد فارق الحياة !

كانت عيناى جافتين .. ولم يساورنى أى انفعال ، اللهم الا شىء من الاضطراب العصبى ، ونوع من الغضب ..

وفى مدخل المحطة ، صادفت قسا وأربع راهبات .. فأل سيىء ! .. وكان ثمة كلب يعوى بنواح كئيب ، على مقربة من البيت ، طيلة الأصيل .. لكم أحسد أولئك الأقوياء الأعصاب ، غير المتطيرين ، الذين لا ينتبهون لأمور كهذه ، فى مثل هذه اللحظات !

وبينما كنت مع خالى « باران » ، فى قاعة الانتظار بالمحطة ، ظهرت الخادم « أوجينى » فجأة ، وهتفت به وعبراتها تنهمر : « ان مدام فلوبير تريدك يا مسيو باران .. لقد انتابتها هستيريا ! » . وهرع خالى اليها .. ولم تمض لحظات ، حتى وصل القطار ، فركبته .. فى طريقى الى الشرق البعيد ، الذى طالما حلمت به !

من نوجان الى باريس : يا لها من رحلة !.. كنت بمفردى

فى المقصورة ، فأغلقت النوافذ ، ورفعت منديلى الى فمى ، ورحت أبكى .. وأعادنى صوت نشيجى الى الصواب ، بعد قليل . ولكن الشهقات ما لبثت أن عاودتنى من جديد ، الى أن شعرت بدوار أثار خوفى ، فأخذت أهدىء نفسى ..

فى مونترو : دخلت مطعم المحطة ، فتناولت ثلاث أو أربع كؤوس من « الروم » ، لا لأحاول النسيان ، وانما لمجرد أن أفعل شيئا .. أى شىء !

ثم اتخذ شقائى شكلا آخر ، فخامرتنى فكرة العودة من حيث أتيت ! (وكنت فى كل محطة أوشك أن أغادر القطار ، ولكن خوفى من أن أكون جبانا منعنى من ذلك) ..

الوصول الى باريس : كان لزاما أن أحزم أمرى قبل أن أصل الى بيت صديقى « مكسيم دوكان » .. ولم أجده فى البيت ، ولكنى وجدت خادمه .. وعاد « مكسيم » فى منتصف الليل ، وكنت أحس بخور العزيمة ، والتردد ، فقال ان الاختيار متروك لى .. وقررت — فى النهاية — ألا أعود الى (نوجان) .. وفى الساعة الواحدة صباحا — بعد ساعات من اللوعة والبكاء اللذين لم يسبب لى مثلهما أى فراق من قبل — كتبت رسالة الى أمى ..

وعشت اليومين التاليين فى لهو مفرط : مآدب عشاء هائلة ، وكميات من الخمور ، وزيارات للمواخير .. ان الملذات الحسية ليست بمعزل يذكر عن الانفعالات ، وقد كانت أعصابى المضناة فى حاجة الى استرخاء !

٨ خطابات الى أمه .. فى أسبوع !

(من فلوبير الى أمه) : باريس فى ٢٦ أكتوبر ١٨٤٩

الساعة الواحدة صباحا : لعلك نائمة الآن يا حبيبتى المسكينة . لا بد أنك بكيت الليلة كثيرا ، كما بكيت أنا ..

اخبرينى عن حالك . لا تخفى عنى شيئا ، لأننى اذا قدر لى أن أعرف ـ فيمابعد ـ ان رحلتى هذه كانت أكثر مما تتحملين حقا ، فسوف يجتاحنى ندم رهيب .

ان « ماكس » عطوف جدا ، فلا داعى لخوفك . لقد وجدت جوازات سفرنا جاهزة ، وكل شىء يسير على مايرام ، وهذا فأل طيب .



تمثال لوالدة فلوبير « مدام أشيل كليوفاس فلوبير » كما بدت فى « قناع الموت »

وداعا .. هذه رسالتى الأولى ، وسوف تتبعها رسائل أخرى ، عما قريب . سأبعث اليك غدا بواحدة أطول . وأنت ؟.. أكتبى لى مجلدات .. أفيضى فى رسائلك الى ! وداعا .. اننى أضمك الى أحضانى ، وقلبى يمتلىء بك .. ألف قبلة .

كان حبا عجيبا بين « فلوبير » وأمه .. ولم تنقض سويعات على الرسالة السالفة ، حتى كتب لها رسالة ثانية .. وتوالت خطاباته حتى بلغت ثمانية ، منذ وصوله الى باريس حتى صعوده الى السفينة فى (مرسيليا) .. ومما جاء فى رسالته الثانية الى أمه :

« انقضى يوم يا حبيبتى البائسة ، لعله أسوأ الأيام .. اننى لا أنفك أتمثل وجهك الحبيب الحزين .. ان « ماكس » مثال الكرم والعطف ، حتى انه عرض أن يدبر لى السفر بالقطار اذا ارتأيت العودة الى (نوجان) . ونحن متفاهمان على أن أعود بمجرد مشاهدتنا مصر ، اذا لم نكن بخير ، أو اذا شعرت بأننى لا أطيق البقاء بعيدا عنك ، أو اذا أنت دعوتنى للعودة . فلا تعذبى نفسك ، ولا تخافى ، اذ أننى أشعر بأن الحنين للعودة اليك سيذلل لى كل شىء . أواه ! لكم سأضمك فى أحضانى ، عند عودتى ، يا حبيبتى ! »

وبرغم ما تصوره رسائله من فرط حبه لامه ، وشدة أساه لفراقها ، فان صديقه ـ وزميله فى الرحلة ـ « مكسيم دوكان » يمدنا بصورة أبلغ ، فى هذه الصفحات من كتابه (ذكريات أدبية) :

الرحلة الى مصر

عند عودتى فى تلك الليلة ـ ٢٦ أكتوبر ـ أبلغنى خادمى ان فلوبير جاء خلال فترة غيابى خارج البيت .. فلما دخلت غرفة مكتبى ، لم أره لأول وهلة ، ثم تبينته ـ بعد برهة ـ مستلقيا بطوله فوق جلد دب أسود ، أمام خزانة للكتب ..

وخلته نائما ، ولكنى سمعته يتنهد . لم أكن رأيت قط انسانا مستلقيا بجسمه المديد على هذه الصورة ، لا سيما أنه ضخم الجسم ، قوى البنية . واذ سألته ، قال بلهجة باكية : « لن يقدر لى أن أرى أمى أو وطنى ثانية . فهذه الرحلة طويلة كل الطول ، بعيدة كل البعد .. يا للجنون ! لماذا نقوم بها ؟ ! »

وشعرت باستياء . وأخبرنى بأنه ترك حجرة مكتبه فى (كرواسيه) ، تماما كما لو كان عائدا اليها فى اليوم التالى : على المكتب كتاب مفتوح عند آخر صفحة قرأها ، وعلى المقعد رداء الحجرة ، وبقرب الأريكة نعلاه !

وهيأت له ــ فى تلك الليلة ــ كل ما يشفيه من هذه الحال من التردد والتقاعس ، ولكنى فى الصباح التالى دخلت عليه حجرته قبل أن يبرح الفراش ، وقلت له : « ليس هناك ما يلزمك بالرحيل معى . فاذا كنت ترى أن الرحلة أكثر مما تطيق ، فعليك أن تتخلى عنها . وسأرحل وحدى » . ولم يدم صراعه لنفسه طويلا ، بل صاح : « كلا .. سأكون مدعاة للسخرية الى درجة لا أجسر معها على تأمل وجهى فى المرآة ثانية ! »

وفى الثامن والعشرين من أكتوبر ، أقمنا مأدبة عشاء للوداع ، فى احدى الحجرات الخاصة بمطعم « الاخوة الثلاثة الريفيين » فى حى (باليه رويال) ، جمعتنا ــ أنا وفلوبير ــ بتيوفيل جوتييه ، ولوى دى كورمنان ، وبوييه .. وأمضينا المساء فى حديث عن الفن والأدب والعالم القديم .. **واستخف الحماس « فلوبير » فتحدث عن اكتشاف منابع النيل ، بينما راح « جوتييه » يحثنى على اعتناق الدين الاسلامى ، ويمنينى بتقبيل الحجر الأسود فى مكة ، وبارتداء الثياب الحريرية .. أما « لوى دى كورمنان » فكان مكتئبا لرحيلى .. وراح**

« بوييه » يقرض طرف سيجاره فى سكون ، بعد أن طلب منا أن نذكره حين نقف أمام آثار كليوباترا !

ثم بدأنا رحلتنا من باريس الى مارسيليا ، وكانت طويلة ـ اذ لم يكن لقطار « الاكسبريس » وجود فى تلك الأيام ـ وفى اليوم التالى ركبنا عربة البريد ، ثم الباخرة من (شالون) الى (ليون) ، ثم استقللنا سفينة (الرون) حتى (ڤالنسيا) ، حيث توقفنا بسبب الضباب . ومن هناك ركبنا عربة الى (اڤنيون) .. وأخيرا أخذنا القطار الى (مارسيليا) فى اليوم الأول من نوفمبر .

وفى الرابع من الشهر ـ وكان يوما ردىء الجو ، ملبد الغيوم ـ صعدنا الى السفينة «النيل» ، وهى سفينة تجارية قوتها ٢٥٠ حصانا ، كانت تهتز كأنها شخص ثمل ، وهى تمضى ببطء الى الأمام .

ولا أستطيع أن أقول ان « فلوبير » لم يعد الى اكتئابه ، فقد وقف طويلا منحنيا على أحد حواجز السفينة ، يحدق فى ساحل (بروڤانس) وهو يختفى رويدا وسط الضباب .. وبعد أحد عشر يوما من الرياح والأمواج العالية ، لمحنا شاطىء .. مصر !

من فاوبير الى أمه

مالطة ـ من على ظهر السفينة « النيل »

ليلة الأربعاء ـ الخميس : ٧ ـ ٨ نوفمبر ١٨٤٩

... كان وجه « مكسيم » من أكثر الوجوه مدعاة للضحك !.. لم يكن ـ الفتى المسكين ـ يتوقع أن يكون هو المريض ، فعهد بى الى رعاية طبيب السفينة ، مع أننى لم أشعر قط بلحظة تعب واحدة ، فى حين أنه لم يتوقف عن المعاناة لحظة واحدة !..

وفى اليوم الخامس عشر من نوفمبر ، وصلا الى الاسكندرية .. ومن هناك ، كتب « فلوبير » الى أمه فى ١٧ نوفمبر :

« بينما كنا على مبحرة ساعتين من ساحل مصر ، توجهت نحو مقدمة السفينة مع ضابطها ، فرأيت « سراى » عباس باشا تبدو كقبة صماء فوق زرقة البحر الأبيض المتوسط ، والشمس تصليها نارها ..

« كانت نظرتى الأولى الى الشرق ، من خلال ضوء متألق أشبه بفضة مذابة فوق سطح البحر .. وسرعان ما تجلى الشاطىء للأنظار ، فكان أول ما رأيناه على اليابسة جملين يقودهما حاديهما ، ثم تراءى رصيف الميناء يعلوه بعض أعراب يصيدون السمك فى هدوء ..

« وهبطنا الى البر وسط ضجيج لا يتصوره أحد .. سمر وسمراوات ، أبل وعمائم ، هراوات تطيح يمينا ويسارا ، صيحات من الحناجر تمزق الآذان ، ألوان تفيض بغزارة وسخاء .. والضرب بالهراوات يلعب هنا دورا كبيرا ، فكل ذى ثياب نظيفة ، يضرب كل ذى ثياب قذرة .. وعندما أقول ثيابا ، فانما أعنى السراويل القصيرة .. وكم من سادة ترينهم يتسكعون فى الشوارع ، وليس عليهم سوى أقمصة وسراويل طويلة !.. وكل النساء محجبات ــ عدا أدنى الطبقات ــ وتتدلى من أنوفهن حلقات معدنية تهتز من جانب الى آخر .. انك لتجدين الحشمة تغير مواقعها ، كلما انتقلت من بلد الى آخر ، وكأنها مسافر تملكه الملل فأخذ يتنقل من مقعد الى آخر فى المركبة !

« ومن أغرب الأمور هنا ، ذلك الاحترام ــ أو بالأحرى الهلع ــ الذى يظهره الجميع فى حضرة « الافرنج » ، كما يسمون الأوربيين .. وتكاد الاسكندرية تكون مدينة أوربية ، تزخر بالانجليز والأوربيين وغيرهم . وقد رأينا

بالأمس موكبا رائعـا ، احتفالا ب « طهور » ابن لأحد التجار الأغنياء . كما رأينـا فى الصبـاح مسلتى كليوباترا (وهما مسلتان هائلتان على شاطىء البحر) ، وسنرحل غدا الى رشيد ، ونعود خلال ثلاثة أيام أو أربعة .. اننا نطوف ببطء ـ دون ارهاق ـ ونعيش بتعقل ، ونرتدى ثيابا من « الفانيلا » برغم أن الحرارة داخل المبانى تصل الى ٣٠ درجة أحيانا .. أما الرمد فلا يتفشى الا بين الذين يعيشون فى أزرى الظروف .. ومن ثم فلا تخافى يا أماه ، وتجـلدى ، فسـأعود فى خير حال » .

وعاد « فلوبير » يكتب الى أمه من الاسكندرية ، فى ٢٣ نوفمبر ، يصف الرحلة الى رشيد :

« انطلقنا فى فجر يوم الأحد الماضي ، على صهوات جيادنا ، فى ثياب الركوب وقد حملنا الأسلحة ، يصحبنا أربعة رجال يعدون وراءنا ، و « ترجمان » يمتطى بغلة ويحمل معاطفنا وزادنا . ان الصحراء تبدأ عند أبواب الاسكندرية مباشرة : تلال صغيرة من الرمال هنا وهناك ـ فى البداية ـ تكسوها اشجار النخيل ، ثم تمتد الكثبان الى ما لا نهاية ..

« وفى مكان يدعى (ادكو) ـ ستجدينه على خريطتك ـ ركبنا « معدية » ...

« وفى السادسة مساء ـ بعد غروب جميل بدت فيه السماء كطلاء أحمر مذاب ، ورمال الصحراء كالحبر ـ وصلنا الى (رشيد) ، فاذا كل أبوابها مغلقـة ، ولكنها فتحت بمجرد سماع اسم حاكم المدينة « سليمان باشا » ..

« وكانت الشوارع مظلمة ، ضيقة لا تكاد تسمح بمرور أكثر من رجل واحد فوق جواده . واخترقنا الأسواق ، فاذا كل حانوت مضاء بمصباح زيتى من الزجاج ، يتدلى بحبل .. حتى وصلنا الى الثكنات ..

واستقبلنا الباشا (سليمان باشا) وهو قابع على أريكته يحيط به رجال سود أحضروا لنا القهوة والغلايين .. وبعد عديد من التحيات والمجاملات ، قدموا لنا العشاء ، ثم صحبونا الى الأسرة التى سننام عليها ، وكانت مجهزة « بناموسيات » ممتازة .

« وفى الصباح التالى ، جاء « الباشا » الى غرفتنا ونحن نغتسل ، يتبعه طبيب الفرقة .. وهو ايطالى يتحدث الفرنسية بطلاقة ، وقد قدم لنا تحية المدينة ، وأمضينا بفضله يوما ممتعا جدا . وعندما عرف اسمى ، وعلم بأننى ابن طبيب ، قال انه سمع عن أبى .. وقد أحسست ببعض الارتياح يا أمى العزيزة ، عندما رأيت أن ذكرى أبى مازالت تفيدنى وترعانى على هذا البعد !

« أجل يا عزيزتى المسكينة .. اننى أفكر فيكما معا باستمرار . وفى الوقت الذى يمضى فيه جسمى فى رحلته ، تظل أفكارى تلتفت الى الوراء ، وتدفن نفسها فى أيام مضت .. »

من مذكرات « فلوبير » خلال الرحلة

ليلتنا الأولى على النيل : أشعر بارتياح واحساس شاعرى ، حتى اننى أردد أبياتا من شعر « بوييه » ، ولا أستطيع أن آوى الى فراشى ، فأظل أفكر فى « كليوباترا » ! ان الماء أصفر رقراق ، والنجوم فى السماء قليلة . لقد لففت نفسى جيدا فى عباءتى . واستغرقت فى النوم على فراشى الصغير فوق المركب ..

استيقظت قبل « مكسيم » ، فلما استيقظ ، مد يده اليسرى - بطريقة لا شعورية - ليطمئن الى وجودى !

كانت الصحراء تمتد على أحد جانبى النهر ، بينما تكسو الجانب الآخر مروج خضراء ، تشبه من بعيد - بما

يتخللها من أشجار الجميز - سهول نورماندى التى تزخر بأشجار التفاح .. والصحراء رمادية مشوبة بحمرة .. لقد بدا أمامنا هرمان ، ثم تلاهما هرم أصغر حجما .. والى يسارنا ظهرت القاهرة قابعة فوق تل ، وقبة مسجد محمد على ، تمتد وراءها تلال المقطم الجرداء ..

وصلنا الى بولاق .. هرج وارتباك عند الهبوط الى الأرض ، ولكن الضرب بالهراوات أقل منه فى الاسكندرية قليلا .. ومن بولاق الى القاهرة ، يمتد طريق على نوع من الجسور تحف به أشجار السنط ، حتى وصلنا الى الأزبكية .. مناظر طبيعية رائعة .. أشجار ... خضرة !

حجزنا غرفا لنا فى فندق الشرق (لوريان) .

ومن القاهرة ، كتب فلوبير الى أمه مزيجا من الاحاديث عن رحلته ، وعن صحته ، وثيابه ، وعن الفوارق بين عاصمتى مصر ، التى قال فى وصفها « ان الاشتراكية ليست قريبة منها » .. وكانت نبوءته قبل قيام الاشتراكية فى مصر بقرن وأعوام لاتتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة .. قال :

القاهرة فى ٢ ديسمبر ١٨٤٩ :

ها نحن أولاء فى القاهرة يا حبيبتى المسكينة ، حيث سنبقى على الأرجح طوال شهر ديسمبر .. الى أن يعود الحجاج من مكة ، بعد ما يزيد قليلا على ثلاثة أسابيع . سنهتم بزيارة القاهرة بعناية ، وسنحمل أنفسنا على أن نسجل شيئا كل مساء ..

وحوالى أول يناير ، سنستقل سفينة نيلية وننطلق الى أعلى النهر لمدة ستة أسابيع ، ثم نرتد الى أسفله ، ونعود الى هنا بعد ذلك . ان الرحلة الى أعالى مصر ميسرة تماما ، خالية من أى خطر ، لا سيما فى هذا الفصل من السنة ، عندما لا تكون الحرارة شديدة .

واذا أردت معرفة ما أرتديه هذه الأيام يا حبيبتى



مكسيم دوكان ، صديق « فلوبير » الحميم ، ورفيقه فى رحلته الطويلة الى مصر ، عام ١٨٤٩ (منذ ١٢٠ سنة)

المسكينة ، فاعلمى أننى أرتدى حزاما من « الفانيلا » حول جسمى ، وقميصا وثيابا داخلية من « الفانيلا » ، وبنطلونا سميكا ، وصدارا دافئا ، ووشاحا كبيرا حول العنق .. فضلا عن معطف . وفوق هذا ، أضع تحت طربوشى الأحمر طاقيتين بيضاوين كل صباح ومساء .

ان الشرق يبدأ من القاهرة ، اذ أن الاسكندرية تزخر بالأوربيين الذين لا يحتفظون لها بطابع محلى بحت .. هنا لا تجدين من القبعات غير القليل .. اننا نطوف بالأسواق والمقاهى والمساجد ، ونرى المهرجين .. وهم أولئك الممثلون الهزليون المتجولون ، الذين يتمتعون بمواهب كبيرة ، ولكن فكاهاتهم تتخطى الأدب ..

ومن أوائل زياراتنا ، زيارة لسوق العبيد .. أى احتقار للجسم البشرى ! .. ان الاشتراكية ليست قريبة فى مصر !

لكم يستغرقنى الاعجاب بالجمال التى تجتاز الشوارع باستمرار ، وترقد بين الحوانيت فى الأسواق !

وكان فلوبير يسجل فى مذكراته مايكتبه لامه ، وفى هذه الصفحة يروى قصة مغامرة نسائية رخيصة فى القاهرة :

مغامرة نسائية . فى القاهرة !

فى بيت بشارع صغير خلف فندق (لوريان) ، اصطحبونا الى غرفة كبيرة فى طابق علوى .. كانت تبرز منه ــ فوق الشارع ــ مقصورات تتخلل كل جانب منها نوافذ صغيرة لا يمكن اغلاقها . وفى مواجهة المقصورة نافذة كبيرة دون اطار أو زجاج ، تتراءى خلالها نخلة .. وعلى أريكة كبيرة الى اليسار ، تربعت امرأتان ، بينما وضعت زجاجة من « العرقى » ومصباح فوق شىء يشبه رف المدفأة .

ونزلت أولى المرأتين .. « لاتريستينا » .. كانت صغيرة الحجم ، شقراء ، ذات وجه أحمر ، وشفتين غليظتين ، وأنف

أفطس .. وكانت مرحة ، بهيمية ! .. أما الثانية فكانت ذات عينين سوداوين واسعتين ، وأنف مستقيم ، يبدو عليها الضيق والاكتئاب ، لعلها كانت عشيقة واحد من الأوربيين .. كانت تفهم كلمتين أو ثلاثا من الفرنسية !

وكانت « لاتريستينا » شديدة الخوف من البوليس ، وقد توسلت الينا ألا نحدث أى صخب ، فان الوالى عباس باشا يقسو على النساء ، لأنه مولع بالرجال !

وكان الرقص والموسيقى محرمين فى هذا البيت ، ومع ذلك فقد نقرت « لاتريستينا » على المائدة بأصابعها ، بينما رقصت الأخرى بعد أن أحاطت الجزء الأسفل من ردفيها بوشاح .. أدت رقصة سكندرية ، كانت ترفع خلالها يديها الى جبينها بالتناوب .. ثم رقصة أخرى بسطت فيها ذراعيها الى الأمام – واحداهما أعلى قليلا من الأخرى – وظل جذعها بلا حراك ، بينما أخذ ردفاها يرتعشان !

وكان لابد من انتزاع عدد من القطط الصغيرة من الفراش .. ولم تخلع « هاديلى » – وهو اسم المرأة الثانية – سترتها ، وأفهمتنى بالاشارات أنها تعانى ألما فى صدرها ..

وفيما كانت تتقدمنى ، استمتعت بسماع حفيف ثيابها ، ورنين العملات الذهبية التى تزين شعرها .. جسم سليم ، وقسماته واضحة ، فى ضوء القمر .. وكانت تحمل مشعلا !

.. وفى الفراش ، كان جسمها بدينا فى غير ترهل ، أسمر ، خاليا من الشعر والشحم .. ثم ساعدتنى على ارتداء ثيابى ، ولم أفهم كلماتها العربية اذ راحت تسألنى وترتقب الاجابة .. وخيل الى أن عينيها تغوصان فى عينى ، وعينى تغوصان فى عينيها ، وقد تضاعف تركز نظراتها .. وتولى جوزيف (الترجمان) الشرح .. كانت عملية جنسية بمعونة مترجم !

ويعود « فلوبير » فى الصفحة التالية من مذكراته خلال الرحلة ، فيصف طوافه بأهم معالم القاهرة التاريخية :

الأهرام : انطلقنا عند الظهيرة من يوم الجمعة .. « مكسيم » على جواد أبيض لم يكف عن أن يهز رأسه ، و « ساسيتى » ـ خادم مكسيم ـ على جواد أبيض كذلك ، وأنا على فرس سمراء ، وجوزيف (الترجمان) على حمار .. وعند الجيزة ، رأينا مرجا شاسعا ، شديد الخضرة ، يمتد أمامنا ، تتخلله مربعات من التربة السوداء ، هى القطع التى حرثت حديثا وانحسر عنها الفيضان .. وهنا وهناك ، كان بعض الجاموس يرعى .. ومن آن الى آخر ، كانت خيولنا تغوص فى جداول موحلة ، نضب ماؤها .. ولا نلبث أن نخوض بركا أو جداول مائية .

وبلغنا حافة الصحراء تقريبا ، حوالى الساعة الثالثة والنصف ، فاذا الأهرام تنتصب أمامنا شاهقة . ولم أعد أملك زمام نفسى ، فدفعت مهمازى فى بطن جوادى ، فانطلق راكضا ، وهو ينثر ماء المستنقع .. وحذا « مكسيم » حذوى بعد دقيقتين .. كان سباقا عنيفا . وأخذت أصرخ بالرغم منى ، ونحن نصعد المرتفع مسرعين الى « أبى الهول » ، تحف بنا سحب من الرمال .. وتبعنا مرافقونا من الأعراب فترة ، وهم يصيحون ويشهقون .. وأخذ « أبو الهول » يكبر رويدا ، ولاح أنه ينهض من الأرض ككلب يرفع جسمه على ذراعية ..

مشهد أبى الهول : أبو الهول أى أبو الرعب . الرمال ، الأهرامات الثلاثة : كلها سمراء اللون ، تسبح فى ضوء وردى .. والسماء صافية الزرقة ، والنسور تحوم ببطء فوق قمم الأهرام .

وتوقفت أمام أبى الهول . لقد بدا وكأنه يحدجنا بنظرة مروعة ، فشحب وجه « مكسيم » تماما ، وخشيت أن أروح فى غيبوبة ، فحاولت التغلب على انفعالى .. وانطلقنا مبتعدين

بسرعة جنونية ، ثم درنا ببطء حول قاعدة الأهرام .. لقد تأخر وصول أمتعتنا ، وأخذ الليل يرخى سدوله ..

. . . . .

ثم نصبت الخيمة ، وقدم العشاء على ضوء مصباح صغير ، يتدلى من عمود الخيمة .. وكانت بنادقنا مكومة بجوارنا .. وجلس الأعراب حول النار ، أو ناموا تحت أغطيتهم فى حفر صنعوها فى الرمال بأيديهم ، فبدوا وكأنهم جثث هامدة فى أكفانها .. واستغرقت فى النوم داخل عباءتى ، وأنا أتأمل كل هذه الأشياء ، بينما كان الأعراب يرددون أغانيهم الرتيبة .. وأسمع أحدهم يروى حكاية .. هكذا حياة الصحراء !

فى الساعة الثانية أيقظنا « جوزيف » ، معتقدا أن الفجر قد بزغ ، غير أنها كانت مجرد سحابة بيضاء فى الأفق المواجه لنا . ودخنت غليونى على ضوء النجوم ، متطلعا الى السماء ، وعواء ابن آوى يتردد !

استيقظت فى الخامسة صباحا ، وكنت الأسبق ، فاغتسلت أمام الخيمة فى دلو من القماش السميك .. وكنا نسمع عديدا من أبناء آوى تعوى .. وانطلقنا لتسلق الهرم الأكبر ، الهرم الذى الى اليمين ، هرم خوفو .. كانت الأحجار ـ التى لاحت من مسافة مائتى خطوة فى حجم أحجار رصف الطرق ـ كتلا ارتفاع كل منها ، بل ارتفاع أصغرها ، ثلاث أقدام ! .. وتسلقنا عند الركن الأيسر ، فى مواجهة هرم خفرع .. كان الأعراب يرفعوننى ويسحبوننى .. وأصابنى الاعياء بسرعة ، فهى محاولة مرهقة للغاية .. لقد توقفت خمس مرات أو ستا فى طريقى الى أعلى ، وسبقنى « مكسيم » الذى بدأ التسلق قبلى .. وأخيرا وصلت الى القمة .

وعلى جانب الهرم الذى غمرته أشعة الشمس البازغة ، رأيت بطاقة مثبتة الى الصخر ، وقد كتب عليها : « همبرت

ـ مقاول بياض » ! .. كان « مكسيم » فى حالة يرثى لها ، حتى أوشكت أنفاسه أن تنقطع .. فقد سبقنى الى التسلق ليقرأ هذه البطاقة !! .. وكم من أغبياء كتبوا أسماءهم فى كل مكان : « بيفار ـ ٧٩ شارع سان مارتان ـ صانع ورق الجدران » .. وبحروف سوداء كتب أحد الانجليز : « جينى ليند » .. كل الأسماء تقريبا حديثة ! .. وكان الهبوط سهلا عند الركن الآخر .

وبعد الافطار زرنا جوف الهرم : ممر أملس مستو ـ أشبه بأنابيب المجارى ـ تهبط فيه لتجد ممرا آخر ، يصعد الى أعلى .. وكنا ننزلق فوق مخلفات الخفافيش . ويبدو أن هذين الممرين صنعا لتيسير سحب التوابيت الضخمة يبطء الى أماكنها .

وبينما كنا نخرج ـ زحفا على أيدينا وركبنا ـ من أحد الممرات ، التقينا بجماعة من الانجليز فى طريقهم الى الداخل .

ولم تقتصر رسائل « فلوبير » ـ خلال رحلته ـ على ما كتب لامه ، فقد كان يكتب لاصدقائه من آن لآخر .. وهذه رسالة منه الى « لوى بوييه » :

القاهرة فى نهاية ديسمبر ١٨٤٩ :

لم نر بعد أية راقصة ، فهن جميعا مبعدات الى مصر العليا ، غير أننا رأينا رجالا يرقصون ..

فى أقصى قاعة المائدة بالفندق ، يعزف ثلاثة أو أربعة من الموسيقيين على أدوات غريبة ـ سنحضر بعضها عند عودتنا ـ بينما يمضى أحد السادة فى استكمال عشائه ، وقد جلس بقيتنا على أريكة ندخن الغلايين .. أما الراقصان ، فتصور وغدين على درجة بالغة من البشاعة ، وان كانا فاتنين فى خلاعتهما وفجور نظراتهما ، وقد اتسمت حركاتهما بالأنوثة ، وكحلا عيونهما ، وارتديا زى النساء : سروالا فضفاضا ، وسترة مطرزة تصل الى حافة البطن ،

وحزاما عريضا من الكشمير ـ لتثبيت السروال ـ يلتف عدة طيات أسفل البطن .. أما البطن بالذات ـ وكذلك الخصر وقمة الردفين ـ فكلها تبدو عارية خلال قماش شفاف أسود يلتصق بالجلد ، ويتثنى ـ من لحظة لأخرى ـ فى تموجات غامضة !

ولم تتغير الموسيقى ولا توقفت طوال ساعتين .. تأوهات الناى الحادة ، ودقات الطبول تكاد تحسها تدوى فى صدرك ، وصوت المغنى يعلو على كل شىء .. والراقصان يقبلان ويدبران ، يهزان أردافهما بحركات قصيرة تشنجية ، وقد سكن باقى جسميهما ، أو يهزان صدريهما وبقية الجسم بلا حراك كذلك .. ويقتربان منك وأذرعهما مبسوطة ، وهما يدقان نوعا من الصنج المعدنية (الصاجات) ، ووجهاهما جامدان ـ تحت العرق والطلاء الأحمر ـ كوجهى تمثالين .. أعنى أنهما لا يبتسمان قط !

وينشأ تأثير رقصهما من المفارقة بين رزانة الرأس وحركات الجسد الداعرة .. وكانا ـ فى بعض الأحيان ـ يستلقيان على ظهريهما كما تستلقى المرأة فى الفراش ، ثم ينهضان بحركة من الخصر تشبه ارتداد شجرة ثنتها الريح .. وخلال انحناءاتهما للتحية ، كان سروالاهما ينتفخان فجأة كبالونين بيضاويين ، ثم يتسرب الهواء منهما فكأنما كانا يتلاشيان .. وأخشى ألا نجد النساء فى براعة الرجال ، فان دمامة الرجلين ساعدت على اظهار رقصهما على أنه فن !

اننا نتحدث مع رجال الدين من كل العقائد .. ان المواقف والأوضاع التى يتخذها الناس ـ أثناء الطقوس ـ جميلة حقا ، فى بعض الأحيان . ولقد حملناهم على أن يترجموا لنا الأناشيد والحكايات والمأثورات .. وهى أكثر الأشياء أصالة فى شعبيتها وشرقيتها .

ونحن نستأجر علماء لهذا ، ونتصرف فى تعاظم ، ونبيح لأنفسنا كثيرا من الوقاحة والتحرر فى الكلام ، حتى أن صاحب فندقنا يرى أننا نتمادى أحيانا . ومن المقرر أن نستقبل ـ فى أحد الأيام ـ جماعة من العرافين والسحرة ، أملا فى أن نرى مزيدا من الحركات الشرقية الجميلة .

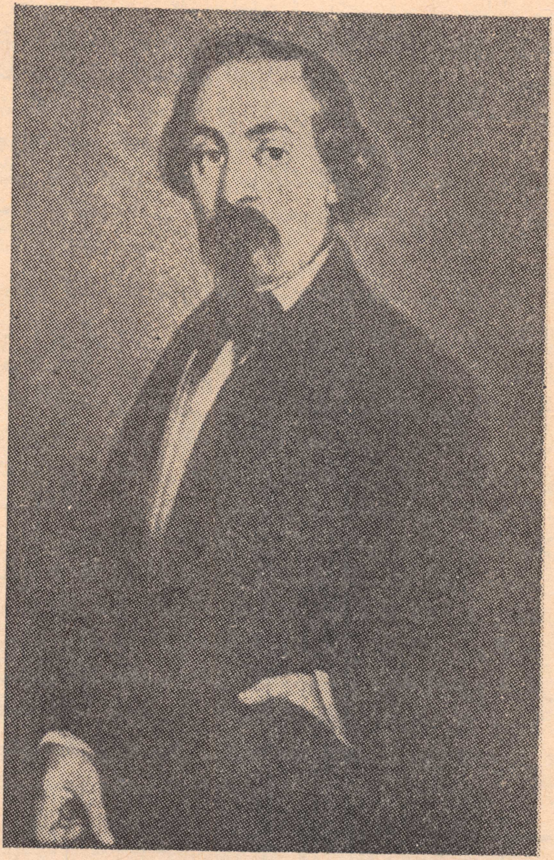
أكثر يا « لوى » من زياراتك لأمى ، وبث فيها الشجاعة والجلد ، واكتب اليها اذا كانت بعيدة عنك ؛ فان المسكينة بحاجة لكل هذا ..

من كتاب « ذكريات أدبية » ، لمكسيم دوكان

« .. كان الرجل « خليل أفندى » عالما الى درجة لا بأس بها ، يعرف كل شىء عن فروض الاسلام ، وعادات المسلمين ، والتراث الشعبى الذى يمتزج تماما بالطقوس الدينية حتى يصبح جزءا منها . وقد اتفقنا معه على أن يقضى معنا أربع ساعات يوميا ، مقابل ثلاثة فرنكات عن كل ساعة ، ليجيب عن الأسئلة التى نوجهها اليه . وكنت أتصدر توجيه الأسئلة ، اذ اعتزم استخدام المعلومات فى كتاب عن « الآداب الاسلامية » وقد عالج « خليل افندى » النقاط الست التى تجمع ـ فى الشرق ـ خلاصة الحياة كلها تقريبا : الولادة ، والطهارة ، والزواج ، والحج الى مكة ، وشعائر الموت ، والآخرة .. وكنا نسجل الملاحظات خلال الحديث . وقد اعتزم « فلوبير » أن يستخدم ما سجل فى قصة شرقية خطرت له .. »

ولم يكن « فلوبير » يغفل ـ طيلة هذه الاثناء ـ عن الكتابة الى أمه .. وفى ٥ يناير ١٨٥٠ ، كتب اليها يقول :

« .. وصل خطابك الطويل البديع ـ المؤرخ ١٦ ديسمبر ـ فى وقت مناسب ليكون هدية رأس السنة ، يا حبيبتى المسكينة ! .. كنت أؤدى زيارة رسمية للقنصل الفرنسى يوم رأس السنة ، عندما وصلت حقيبة البريد ، فبادرت



« لوى (لويس) بوييه » صديق فلوبير ، الذى استمر فلوبير يراسله خلال الرحلة ، ويصف الكثير من انطباعاته عنها .

الى فتحها . والتقطت المظروف الذى تعرفت عليه بين مئات غيره . وكانت أصابعي تتحرق شوقا لفضه ، غير أن التقاليد منعتها للاسف . وشاء الحظ أن يدعونا القنصل الى صالون مسكنه ، لتقدم تحياتنا لزوجته ، واذ كان بين الرسائل خطاب من أمها ، فقد أذن كل منا للآخر بقراءة رسالته فورا !

هـذا هو الشرق ، مهبط الأديان !

ومنـذ أيام ، قضيت أصيلا جميـلا فى زيارة بطـريرك الأقباط ، كى أجرى معه حـديثا . ودخلنا ساحة مربعة الشكل ، تحيط بها الأعمدة ، وتتوسطها حديقة تحوى عددا قليلا من الأشجار الضخمة ، وتحدها نباتات داكنة الخضرة ، يمتد حولها نوع من الأرائك المصنوعة من الخشب المفرغ . وتقـدمنى الترجمان بسرواله الفضفـاض ، وسترته ذات الأكمام الواسعة . وفى ركن من الأريكة ، جلس البطريرك ، بلحيته البيضاء ، يرتدى طيلسانا ثقيلا ، وقد تناثرت حوله كتب مخطوطة بنوع غريب من الخطوط . وعلى مسافة منه ، وقف ثلاثة من الأطباء فى ثياب سوداء ، ذوو لحى طويلة مثله ، وان كانوا أصغر سنا . وقال الترجمان : « هذا خواجه فرنساوى يطوف العالم بحثا عن المعرفة ، وقد جاء اليكم لتحدثوه عن دينكم » .

واستقبلنى البطريرك بكثير من الحفـاوة ، وأحضرت القهوة ، وما لبثت أن بدأت أوجـه الأسئلة عن الثـالوث ، والعذراء ، والأناجيل ، والقربان المقدس .. كان المشـهد رائعا : السماء زرقاء فوقنا ، والأشجار ، وكميات كبيرة من الـكتب . والشيـخ المسـن يعبث بلحيته قبل أن يرد على أسئلتى ، وأنا أجلس بجواره متشابك الساقين ، مشرعا قلمى

لأدون ملاحظاتى ، بينما وقف « حسن » بلا حراك ، يترجم أقوالنا بصوت عال ، وجلس الأطباء الثلاثة الآخرون فى مقاعدهم الصغيرة ، يهزون رءوسهم ، ويعلقون بكلمات عابرة .

لقد استمتعت كثيرا بهذه الجلسة .. هذا هو الشرق القديم حقا ، أرض الديانات والعباءات الفضفاضة .. وعندما انصرف البطريرك ، حل محله واحد من رجاله ، حتى اذا رأيت — فى النهاية — أن وجوههم قد احمرت من التعب ، انصرفت على أن أعود فيما بعد ، فهناك الكثير الذى يمكن تعلمه فى هذا المكان .. ان القبطيـــة هى أقـدم الطوائف المسيحية القائمة ، ولم يعرف عنها فى أوربا الكثير ، على قدر علمى .. ولسوف أتحدث كذلك مع الأرمن والروم ،والسنيين وعلماء المسلمين بوجه خاص .

مازلنا ننتظر عودة القافلة (المحمل) من مكة ، فهذا حدث عظيم يجب ألا أضيعه ، ولذلك فلن نرحل الى مصر العليا الا بعد وصول الحجاج ، فهناك بعض أشياء غريبة جـديرة بالمعرفة كما يقولون لنا .. مشهد جياد الشيوخ وهى تسير فوق أجســام المؤمنين المنبطحة على الأرض ، وكافة فئـات الصوفيين والدراويش ، الخ . . !

اننى حين أفكر فى مستقبلى ، وهو ما يحدث نادرا — اذ أننى لا أفكر فى شىء اطلاقا ، بصفة عامة ، برغم ما ينبغى أن يراود المرء من أفكار ، أمام الأطلال — أسائل نفسى : ماذا سأفعل بعد عودتى ؟ ماذا سأكتب ؟ ما الذى سأصلح له ؟ أين سأقيم ؟ أى طريق سأسلك ؟ وما الى ذلك .. اذ ذاك أمتلىء بالشكوك والتردد .

لقد اعتدت — فى كل مرحلة من حياتى — أن أتجنب مشكلاتى بهذه الطريقة ، وسأموت فى الستين من عمرى ولما أتخذ أى رأى فيما يتعلق بنفسى ، بل ربما قبل أن أكتب شيئا يرينى مدى قدراتى .. اننى كثيرا ما أسائل نفسى : هـل

كتابى « القديس انطوان » كتاب جيد أم ردىء ؟ .. هل كنت مخطئا فى تأليفه أم أن الآخرون هم المخطئون ؟

على أننى لا أعبأ بشىء من هذا ، وأعيش كالنبات ، أملأ كيانى بالشمس والنور ، بالألوان والهواء المنعش .. وبتعبير آخر ، أظل آكل .. ولابد لمشكلة الهضم من حل فيما بعد ، وهذا أهم الأمور !

تسألينني عما اذا كان الشرق قد حقق ما كنت أتصوره عليه .. أجل لقد فعل ذلك وأكثر منه ، حتى انه ليمتد الى ما هو أبعد من الفكرة الضيقة التى كانت تراودنى عنه فى غير وضوح .. لقد حلت الحقائق محل الافتراضات ، بدرجة رائعة ، حتى أننى كثيرا ما أخال أننى عثرت فجأة على أحلام قديمة منسية !

من فلوبير الى أمه

القاهرة فى ٣ فبراير ١٨٥٠ :

قد نرحل الى مصر العليا يوم الأربعاء القادم ، وسوف نتناول العشاء قبيل رحيلنا مع سليمان باشا ، بينما تكون سفينتنا فى الانتظار أمام أبواب قصره ، على شاطىء النيل . واذا كانت الريح مواتية ، فسوف نقلع بعد العشاء مباشرة ، فنتجه الى أعالى النهر بأسرع ما يمكننا ، ولا نتوقف الا عندما تتوقف الريح ــ وهو شىء لا يحدث كثيرا ــ وفى طريق عودتنا سنتوقف لزيارة بعض الأماكن فى أوقات فراغنا .

وسفينتنا مطلية باللون الأزرق ، وربانها أو « ريسها » يدعى « ابراهيم » ، كما أن فيها تسعة من الملاحين ، وقد خصصت لاقامتنا عليها غرفة بها أريكتان متقابلتان ، وغرفة كبيرة بها فراشان ومكان لأمتعتنا ، وثالثة سينام بها « ساسيتى » (بجانب استخدامها كمخزن للمؤن) . أما « الترجمان » فسينام على السطح .. وهو رجل لم يخلع

ثيابه غير مرة واحدة منذ استخدمناه .. ولغته غريبة ، ومظهره أكثر غرابة ، ولكنه طيب القلب ، أهل للثقة ، يستطيع المرء أن يذهب معه الى آخر العالم دون أن يصيبه خدش !

تسألينني عن رسالتى التى أؤديها خلال رحلتى ؟ .. لا يكاد يوجد ما أؤديه ، وأعتقد أننى لن أفعل شيئا تقريبا . فأنا أزداد شعورا بعدم المبالاة بكل شىء .. وبعد عودتى سأستأنف حياتى الهادئة وعملى ، فى مقعدى الكبير المريح ـ على مقربة منك يا حبيبتى ـ فى حجرة مكتبى .. هذا كل ما أعتزم ، فلا تتحدثى بربك عن دفع نفسى الى الأمام ، فلماذا أدفع نفسى ؟ .. ماذا يمكن أن يرضينى أكثر من البهجة التى أشعر بها عندما أجلس أمام الطاولة المستديرة التى أكتب عليها ؟ .. ألست أمتلك فعلا كل شىء يعتبره الناس جديرا بالحسد !

اننى أتمتع بالاستقلال وحرية الخيال ، ومائتى قلم للكتابة ، ومعرفة بكيفية استخدامها .. ثم ها هو الشرق ـ ومصر بوجه خاص ـ يعمل على تبديد بواعث غرورنا الدنيوى .. فان رؤية الكثير من الأطلال القديمة تجعلك تفقدين الرغبة فى بناء أى جديد .. وغبار الماضى يجعلك لا تبالين بشهرة . وأنا فى الوقت الحالى لا أرى ما يدعو ـ حتى من الناحية الأدبية ـ لأن أفعل أى شىء يجعل الناس يتحدثون عنى .. ان الحياة فى باريس ، ونشر الكتب ، وتنشيط نفسى .. كل هذه تبدو ـ من هذه المسافة البعيدة ـ أمورا لا تطاق .. ولكن ، ربما غيرت رأيى فى هذا الشأن بعد عشر دقائق فقط !

(وهكذا نلمس فى حديث « فلوبير » الى أمه ، ما لمسناه فى رسالته الى صديقه « بوييه » من زهد فى العمل ، وميل الى عدم المبالاة .. أما الرحلة النيلية ذاتها ، فلا تجد وصفا لها ، سوى ما كتبه « مكسيم دوكان » فى كتابه « النيل : مصر والنوبة ») :

من كتاب (النيل : مصر والنوبة) لمكسيم دوكان

.. كان «ريس» مركبنا شابا وسيما فى الخامسة والعشرين يدعى ابراهيم ، وقد اعتاد أن يقضى أيامه فى مقدمة السفينة، يحدق الى الأمام مباشرة ، ويلقى بعض الأوامر بين حين وآخر .. وما أقل ما يتحدث مع بحارته ، وهو يأكل بمفرده، ولا يدخن قط .. شخص دقيق أنيق ، نظيف ومهندم .. ورغم البساطة المتناهية فى ملبسه ــ الذى يتكون من ثوب أزرق وعمامة بيضاء ــ فقد كان محوطا بجو من الكبرياء ، يزيده مهابة لونه الأسمر وملامحه المعبرة وعيناه الوادعتان .

وعندما خلع عمامته يوما ليحلق رأسه ، رأيت خصلة من الشعر تنحدر حتى خاصرته .. شعر أسود جميل ، تحسده عليه أكثر النساء .. وكان خشنا متعاليا مع رجاله ، يضربهم أحيانا ، ولكنه كان ــ اذا ما تطلب الأمر أن يضرب لهم مثلا وسط تيار شديد ــ يمسك المجاديف أو الزانة ، ويدفع المركب بنفسه .. وكان ابراهيم يؤدى صلواته الخمس بانتظام كل يوم ، ولم يهبط قط الى الشاطىء .. ولا أذكر أننى وجهت اليه كلمة لوم واحدة ، طيلة الأشهر الخمسة التى عمل فيها فى خدمتى .

أما الترجمان « جوزيف » ، فكان رجلا فريدا ، فى الخامسة والخمسين من عمره ، يقظا ، نحيلا ، ذا لحية طويلة بيضاء ، وكانت له زوجة شابة تستهلك كل مليم يكسبه .. وهو أصلا من أهالى (جنوه) ، وقد بحث عن حظه فى الجيش المصرى ، وفى التجارة ، وفى خدمة السائحين ، دون أن يصيب توفيقا يذكر .. وكان قد وصل الى مصر بعد شباب ملىء بالمغامرات ، وأصبح يعرف البلاد حتى أصغر قرية وآخر نخلة .. أما لغته فكانت خليطا من العربية والفرنسية والايطالية . ولم يكن من السهل دائما فهمه ، ولكن الخمول

والخمر وحب النساء ـ وهى العيوب المعتادة فى التراجمة ـ لم تكن موجودة فى جوزيف . وكان ـ برغم غروره الذى لا يبارى ـ مثابرا كدودا ، غير أن نظافته كانت موضع شك ، ففى كل صباح ، كان يمر بطرف منشفة مبللة قليلا على جوانب عينيه ، فى حركة خفيفة ، ثم يقول بارتياح : « لقد أتممت زينتى » !

ولم يكن جوزيف ملما بالقراءة والكتابة .. وكانت هذه الأمية تسبب له اذلالا وأسفا دائمين .. وقد قال لى ذات يوم : « كان فى امكانى أن أكون كولونيلا لدى الأتراك ، أو ربانا لفرقاطة تركية ، لو أننى كنت أعرف كيف أكتب ! »

ولعله كان محقا فى ذلك .. لم يكن يمثل قط ، ولا كان يسرف فى سرقتى .. وكان يطيع الأوامر بسرعة ، كما أنه كان مفيدا جدا فى سفرنا على النيل .. وكان على وفاق مع خادمى « ساسيتى » الذى رافقنى من باريس ، والذى تمكنت بفضل مساعدته وذكائه من اتمام عملى الفوتوغرافى بنجاح ، اذ كان يقوم بتقطير الماء ، وغسل الأوعية ، ويتركنى حرا ، أكرس كل جهودى لعملية تحميض الأفلام السلبية .. وهى عملية مرهقة ، اذ لم يكن التصوير الفوتوغرافى سهلا فى ذلك الحين كما هو الآن !

وكنت كلما زرت بعض الآثار القديمة ، اصطحبت أحد بحارتنا وجهاز التصوير ، وكان هذا البحار نوبيا وسيما جدا ، يدعى الحاج اسماعيل .. فكنت أجعله يصعد فوق الأثر الذى أريد تصويره ، ليتسنى لى استخدام مقياس موحد للنسب فى كل صورة من لوحاتى الفوتوغرافية .. وكانت الصعوبة الكبرى هى جعل الحاج اسماعيل يقف ساكنا ريثما أؤدى عملى .. وأخيرا خطر لى أن أقول له ان الأنبوبة النحاسية التى تبرز منها عدسة آلة التصوير ، ليست الا

مدفعا سيغمره بسيل من الطلقات اذا هو تحرك من مكانه .. وهى خدعة جعلته يكف عن الحركة تماما !

ومن الأشياء التى تعلمتها من الرحلة ، بعض الطقوس والتقاليد الدينية ، منها انه وفقا للشريعة الاسلامية ، لابد من التطهر التام بعد أداء بعض الأفعال البدنية : فعندما يغادر الزوج فراش زوجته ــ مثلا ــ عليه أن يغمر نفسه تماما فى بركة ماء أو نهر أو ما شابههما ، على أن يبقى رأسه تحت الماء بعض الوقت . حتى اذا خرج من الماء ، يرفع يديه الى السماء قائلا : « أشكرك يا الهى على نعمتك التى أسبغتها على ، وأبتهل اليك لترشد الطفل الذى قد أنجبه ، الى طريق الهدى .. اللهم أغمض عينى عن المعاصى » ..

من مذكرات « فلوبير » خلال الرحلة

٦ فبراير ١٨٥٠ ــ على ظهر المركب : عندما حان غروب أول يوم لنا بعيدا عن القاهرة ، لاحت السماء حمراء قانية الى اليمين ، وردية الى اليسار ، بينما كانت الأهرام ترسم مثلثات رمادية حادة فى الأفق القرمزى .. والى اليسار شحبت السماء عند السمت ، وتحولت من اللون الوردى الى الأصفر ، فالأخضر .. ثم شحب اللون الأخضر ، وبتحول لا يكاد يشعر به أحد ، أصبح لونها أبيض .. وعلى الجانب الأيمن من السماء ، كان هناك وهج يغمر السماء بضوء ذهبى .

البحارة يرقصون .. و « جوزيف » أمام مواقده ، والمركب تتمايل فى سيرها ، بينما يتوسط النيل المنظر الطبيعى .. ونحن فى وسط النهر ..

.. وفى مكان بعيد ، وعند نهر أكثر رقة وأصغر عمرا من هذا النهر ، أعرف بيتا أبيض ، أدرك أن مصاريع نوافذه



صورة فوتوغرافية لجوستاف فلوبير ، بملابس عصره ..

مغلقة الآن ، لأننى لست هناك ! » (١) .

لياليه مع غوازى قنا واسنا !

من فلوبير الى « بوييه » ، فى ١٣ مارس : نحن الآن على مسافة ١٢ فرسخا جنوب (اسنا) .. بعد ست أو سبع ساعات ، سنجتاز مدار السرطان الشهير .. ان درجة الحرارة فى الظل تبلغ ٣٠ درجة ، ونحن حفاة الأقدام ، لا نرتدى غير القميص .. اننى أكتب لك هذا وأنا جالس فوق أريكة ، أستمع الى دقات « الدربكة » يوقعها بحارتنا وهم يغنون ويصفقون بأيديهم ، بينما السماء تصلى سطح مركبنا بشواظ من نار ، دون رحمة .. والنيل منبسط كأنه نصل من فولاذ ، وعلى الضفتين مجموعات من نخيل باسقة ، والسماء شديدة الزرقة .. لكم افتقدك الآن يا صديقى !

اننى أقرأ « الأوديسة » - كل يوم - باللغة اليونانية . ومنذ ركبنا النيل ، طالعت أربعة أجزاء منها .. اننا سنعود الى الوطن عن طريق اليونان ، ولهذا فانها قد تكون مفيدة لى .. وفى أول يوم على ظهر المركب ، بدأت أكتب قليلا ، غير أننى أحمد الله اذ لم أمض طويلا قبل أن أدرك سخافة مثل هذا العمل ، فمن الأفضل الآن أن أكون كلى عيون ..

اننا نعيش فى أكبر قسط من الخمول ، نتمدد فوق أرائكنا ، ونرقب كل شىء يمر بنا : الابل ، وقطعان الثيران القادمة من (سنار) فى السودان ، والمراكب المتجهة الى القاهرة محملة بالنساء الزنجيات وسن الفيل .. اننا الآن يا سيدى العزيز فى أرض تسير فيها النساء وهن لا يرتدين غير الأقراط فى آذانهن .. لقد رأيت فتيات من النوبة تنحدر

---

(١) يشير فلوبير بهذه العبارة الى بيت أمه ، الذى خلا منه .

قلائدهن المصنوعة من العملة الذهبية الى ماتحت خصورهن ، وبطونهن السوداء مزدانة بعقود من الخرز الملون ..

وبين القاهرة وبنى سويف لم يحدث شيء ذو بال ، وبعد (بنى سويف) استغرقنا خمسة أيام للوصول الى بحيرة موريس . وفى مدينة (الفيوم) قضينا الليل فى بيت رجل مسيحى من أهل دمشق ، عرض علينا ضيافته .

وعندما تقطع هذه الرحلة برا ، تقضى لياليك فى بيوت من الطين الجاف ، تتطلع الى النجوم من خلال شقوق فى السقوف التى تبدو كأقماع السكر . وعند وصولك الى أحد هذه البيوت ، يذبح الشيخ الذى يستضيفك خروفا ، ويأتى كبار رجال القرية لزيارتك وتقبيل يديك !

وفى قنا : نزلنا الى البر لشراء المؤن ، ورجعنا نسير فى سلام ، تداعبنا الأحلام ونحن نستنشق عبير خشب الصندل وسط الأسواق . وفجأة وجدنا أنفسنا عند منحنى فى الشارع ، وسط حى البغاء فى البلدة ، وتصور يا صديقى خمسة أو ستة من الشوارع الملتوية ، وعلى جانبيها أكواخ من الطين الأسمر الجاف ، ارتفاع كل منها حوالى أربعة أقدام ، تقف على أبوابها النساء ، أو يجلسن على حصائر من القش ، وهن يرتدين ثيابا زاهية الألوان تتطاير أطرافها فى الهواء الساخن .. وعلى صدورهن العارية قلائد طويلة من العملات الذهبية ، ينبعث رنينها كلما تحركن ، وهن ينادينك بأصوات مغرية : « تعال يا خواجة !.. يا خواجة ! »

لقد مررت بتلك الشوارع عدة مرات ، معطيا الهبات للنساء ، تاركا اياهن يحطن وسطى باذرعهن محاولات اجتذابى الى داخل أكواخهن . ولكننى قاومت متعمدا ، اذ عقدت العزم على ألا أفسد جو الأسى الذى أشاعه المنظر فى نفسى !

بيد اننى لم أكن بهذا الزهد والمزاج الفنى دائما .. ففى

(اسنا) زرت « كوجك هانم » ، وهى غانية مشهورة .. وكانت خادمتها الأمينة قد جاءت الى المركب فى الصباح ، يصحبها خروف مدلل تناثرت فى فرائه بقع من الحناء الصفراء ، وعلى أنفه كمامة من المخمل الأسود .. كان يتبعها كالكلب .. مشهد غريب جدا !

ولم يغفل « فلوبير » تسجيل زيارته لمنزل « كوجك هانم » بتفصيل دقيق ، فى المذكرات التى كان يكتبها خلال الرحلة ، كما سترى :

٨ مارس ١٨٥٠ ــ اسنا : منزل « كوجك » هانم .. خادمتها « بمبه » تتقدمنى يصحبها خروفها ، فتفتح بابا يفضى بنا الى منزل ذى ساحة صغيرة .. وفى مواجهة الباب درجات سلم ، وعلى الدرجات وقفت امرأة يحيط بها النور ، وتتراءى من خلفها زرقة السماء ، وقد ارتدت سروالا فضفاضا وردى اللون ، وليس على بقية جسمها غير قماش رفيع شفاف ، بنفسجى اللون .

كانت قد برزت من الحمام لتوها ، فانبعث من نهديها الممتلئين المتماسكين ، عبير منعش .. شىء أشبه برائحة زيت « التربنتينا » المعطر . وبادرت بتعطير أيدينا بماء الورد .

و « كوجك هانم » غانية طويلة ، بديعة ، أصفى لونا من العرب ، وقد جاءت من دمشق .. واذا مالت ، كان بدنها ينثنى فى موجات برونزية . وعيناها سوداوان واسعتان ، وفتحة خياشيمها مستطيلة .. عريضة المنكبين ممتلئتهما ، ولها نهدان ممتلئان كالتفاحتين .. وكانت ترتدى طربوشا كبيرا ، يزين قمته قرص ذهبى مقوس تتوسطه قطعة من زجاج أخضر كالزمرد ، بينما انتشر زر طربوشها الأزرق على هيئة المروحة وانسدل على كتفيها .. وعند الحافة السفلى للطربوش ، وضعت فرعا صغيرا من زهور صناعية بيضاء . وكان شعرها الأسود المتموج ينحدر من مفرقها فى فرعين على جانبيها .. وحول معصميها التف شريطان ذهبيان مجدولان

كالضفائر .. وكانت تتزين بقلادة ذات ثلاثة فروع من حبات ذهبية مجوفة ، وقرطين أشبه بقرصين ذهبيين مقعرين قليلا وقد علقت بأطرافهما قطع ذهبية صغيرة . وعلى ذراعها اليمنى وشم أزرق يمثل كتابة ما .

وسألتنا « كوجك هانم » عما اذا كنا نرغب فى شىء من الطرب ، ولكن « مكسيم » قال انه يؤثر أن يلهو معها وحده أولا ، فنزلا الى الطابق الأسفل . وبعد أن انتهى من خلوته بها ، حذوت حذوه !

وجاء الموسيقيان : طفل ورجل مسن غطيت عينه اليسرى بقطعة من القماش . وأخذ الاثنان يعزفان على الربابة ، وهى نوع من الكمان صغير ، مستدير ، له ساق حديدية - تستقر فوق الأرض - ولها وتران من شعر الخيل ، وعنق طويل جدا بالنسبة لبقية جسم الآلة ، وكان الصوت المنبعث منها نشازا يثير النفور ، ولم يكن العازفان يتوقفان عن العزف الا عندما كنت أصرخ فيهما !

وبدأت « كوجك هانم » و « بمبة » الرقص .. كان رقص « كوجك » عنيفا .. فهى تضم نهديها العاريين معا بين طرفى سترتها ، وتضع حزاما من شال بنى اللون به شرائط ذهبية ، وتنهض على احدى القدمين ، ثم على الأخرى ، فى حركات رائعة .. وعندما تكون احدى القدمين على الأرض ، تتحرك الأخرى الى أعلى والى الأمام ، وكل ذلك بقفزة خفيفة .. لقد رأيت مثل هذه الرقصة على الأوانى الاغريقية القديمة .

أما « بمبة » فتفضل الرقص المستقيم : تتحرك مع رفع وخفض أحد الردفين فقط ، فى تمايل ايقاعى بديع .. وكانت تخضب يديها بالحناء ، ويبدو أنها خادم وفية لكوجك هانم ، وكانت قبل ذلك وصيفة فى بيت ايطالى بالقاهرة ، ولهذا فهى تفهم بعض الكلمات الايطالية . وكانت عيناها مصابتين

برمد خفيف . على أن رقص الاثنتين كان بوجه عام — فيما عدا قفزات « كوجك » التي وصفتها من قبل — أقل جودة من رقص « حسن البيبيسى » ، وهو الرجل الذى رأيته يرقص فى القاهرة . أما رأى جوزيف ، فهو ان كل الراقصات الجميلات الشكل ، رديئات الرقص !

وأخذت « كوجك » الدربكة .. انها عندما تعزف عليها تتخذ وضعا ممتازا : الدربكة على ركبتيها أو على فخذها اليسرى ، وتخفض الساعد الأيسر بينما ترفع معصم اليد اليسرى ، وباصبع من هذه اليد تدق على الدربكة ، بينما تهوى اليد اليمنى بدقات بعرض الكف لضبط الايقاع .. وتميل العازفة برأسها الى الخلف ، فى وضع جامد ، بينما يكون جسمها منحنيا — بعض الشىء — على الدربكة .

وكانت المرأتان والموسيقى المسن يشربون الكثير من « العرقى » ، وقد رقصت « كوجك » وهى تضع الطربوش على رأسها ، ثم صحبتنا الى مؤخرة مسكنها ، وصعدت فوق ظهورنا ، وهى ترسم بملامح وجهها أوضاعا وصورا هزلية ، كأى مهرج أوربى .

فى المقهى : كوخ يتسلل ضوء الشمس من خلال الأغصان التى شيد منها ، فيحدث بقعا منيرة على الحصائر التى جلسنا فوقها ونحن نحتسى القهوة .. وكانت « كوجك » تطرب لرؤية رأسينا الحليقين ، ولسماع « مكسيم » يقول : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ..

وانطلقنا لزيارة الآثار مرة أخرى .. وبعد تناول العشاء ، عدنا الى بيت « كوجك » .. كانت الغرفة مضاءة بثلاث فتائل فى أكواب مليئة بالزيت ، وضعت كل منها داخل قمع من الصفيح مدلى على الحائط .. واتخذ الموسيقيان مجلسيهما ، وشرب الجميع أقداحا كثيرة من الخمر بسرعة !

وأقبلت « صفية الصغيرة » ، وهى امرأة صغيرة الحجم ، كبيرة الأنف ، ذات عينين سوداوين ، غائرتين ، تومضان بشهوة وحشية .. وكان لقلادتها المصنوعة من قطع العملة رنين كرنين عربة ريفية .

جلست النساء فى صف على الأريكة يغنين ، والمصابيح تلقى ظلالا مهتزة ، ذات أشكال هندسية ، على الجدران .. الضوء أصفر ، و « بمبة » ترتدى ثوبا وردى اللون واسع الكمين (وكل الثياب النسوية زاهية) وقد غطت شعرها بمنديل أسود كما تفعل الفلاحات .. ورحن يغنين ، وصوت الدربكة يرتفع ، بينما تضفى الربابة بنغمها الرتيب ايقاعا ناعما ولكنه حاد .. كانت الأغنية أشبه بأنشودة مرحة فى جنازة !

ورقصت « كوجك » رقصة النحلة . وقبل أن تؤديها ، أخرجت النسوة « فرغلى » وبحارا آخر - كانا يشهدان الرقصات ، وهما يمثلان العنصر الخشن فى الصورة حتى الآن - وذلك لاغلاق باب الحجرة علينا . ثم وضعت عصابة سوداء فوق عينى الطفل الموسيقى ، وأنزلت طية من عمامة الموسيقى الكهل فوق عينيه .. وراحت « كوجك » تخلع ثيابها قطعة قطعة - أثناء الرقص - حتى أصبحت عارية تماما الا من منديل تمسكه فى يدها ، وكأنما كانت تستتر وراءه !.. وأخيرا ألقت المنديل أيضا ..

هذه هى رقصة النحلة ، وقد أدتها فى ايجاز شديد وقالت انها لا تحب أن ترقصها عادة ! وبعد أن كررت أمامنا الرقصة البديعة التى أدتها فى النهار ، ألقت بنفسها فوق الأريكة وهى تلهث ، بينما ظل جسدها يهتز فى ايقاع خفيف .. وناولتها احدى النساء سروالها الأبيض الكبير المطرز بالورد ، فجذبته الى أعلى حتى بلغ عنقها .. ونزعت العصابتان عن عيون الموسيقيين .. وعندما تربعت « كوجك » على

الأريكة ، بدت ركبتاها فى أكمل بهاء ، وكأنما صاغتهما يدا فنان مبدع .

رقصة أخرى : يوضع قدح من أقداح القهوة على الأرض ، وترقص « كوجك » أمامه ، ثم تهبط على ركبتيها ، وتواصل تحريك جذعها ، وهى تدق الصاجات وتحرك يديها فى الهواء وكأنها تسبح .. ويستمر هذا ، بينما تخفض رأسها تدريجا حتى تصل الى القدح ، فتمسكه من حافته بين أسنانها ، ثم تنهض بسرعة فى وثبة واحدة .

ولم تكن « كوجك » شديدة التحمس لقضاء ليلتها معنا ، خوفا من اللصوص الذين قد يأتون اذا علموا بوجود غرباء لديها . ونام بعض الحراس أو الخفراء فى غرفة جانبية بالطابق الأسفل ، مع جوزيف وفتاة زنجية ، وعبد حبشى ..

وأصرت « كوجك » على أن تنام فى الجانب البعيد عن الحائط من الفراش ، بينما أضاء الحجرة نور خافت من فتيلة فى قدح بيضاوى الشكل .. ونام كلبها على سترتها الحريرية فوق الأريكة ، فكنت أغطيها بسترتى اذا سعلت .. وأسلمت نفسى الى ذكريات متوترة ، ودفء جسدها يلهبنى .

واستيقظنا مع الفجر وقد امتلأنا رقة وحنانا ..

ما أبدع الزهو الذى تشعر به عندما توقن ــ فى لحظة رحيلك ــ من أنك تركت وراءك ذكرى .. وان المرأة ستوليك من تفكيرها أكثر مما تولى غيرك ممن كانوا هناك .. وانك ستبقى فى قلبها !

وفى الصباح تبادلنا الوداع فى هدوء شديد .

٩ مارس ١٨٥٠ ــ أسوان : هذه الفتاة الطويلة القامة اسمها « عزيزة » ، انها أكثر حذقا للرقص من « كوجك » ، وقد خلعت ثوبها الفضفاض ، وارتدت ثوبا قطنيا على الطراز الأوربى ، ثم بدأت الرقص .. عنقها ينزلق الى الوراء والأمام فوق عمودها الفقرى ، وكثيرا ما كان يميل جانبا ، فكأن

رأسها كان يسقط على الأرض !

انها تقف على احدى القدمين وترفع الأخرى وقد ثنت ركبتها فى زاوية قائمة ، ثم تنزلها فى ثبات .. وفى رقصة أخرى ، وضعت القدم اليسرى مكان اليمنى ، واليمنى مكان اليسرى ، وأخذت تبدل وضعهما فى سرعة بالغة .

وخلعت ثيابها .. كانت تضع فوق بطنها حزاما من خرز ملون ، بينما كانت قلادتها الطويلة ــ المصنوعة من قطع العملة ــ تتدلى من عنقها حتى أسفل بطنها ، وقد « لضمت » طرفها فى الحزام الخرزى . وحاولت طفلة صغيرة ــ فى الثانية أو الثالثة من عمرها ــ أن تقلدها متأثرة بالموسيقى ، فأخذت ترقص مثلها دون أن تحدث أى صوت .

حدث هذا فى كوخ من الطين ــ لا يكاد ارتفاعه يكفى لكى تقف المرأة فيه منتصبة القامة ــ فى حى خارج المدينة ، أغلبه أنقاض وأطلال تتساوى بالأرض !

٢٩ مارس ١٨٥٠ ــ أبو سنبل : تأملات : ان المعابد المصرية رغم جلالها ، تبعث فى نفسى الملل .. مثلها مثل الكنائس فى مقاطعة بريتانى .. أو مساقط المياه فى جبال (البيرنيز) !

عقاب « الأفندى » لشيخ القرية !

٤ أبريل ١٨٥٠ : غادرنا بسفينتنا بلدة « السبوع » فى الرابعة صباحا . وحوالى الحادية عشرة ، قابلنا مركب « أفندى » سبق أن رأيناه فى (وادى حلفا) ، وهو « ناظر » مكلف بجباية الضرائب بالقوة ، من أسوان حتى وادى حلفا . لقد فاجأ « الأفندى » شيخ احدى القرى واعتقله بالقوة لأنه لم يقدم مليما واحدا من الضريبة المطلوبة ، وكان الشيخ مقيدا بالسلاسل فى قاع المركب ، لا نستطيع أن نلمح غير رأسه الأسود العارى يلمع تحت الشمس .

وتواصل مركب «الأفندى» سيرها على مقربة من مركبنا فترة من الوقت ، ثم تلمس مقدمتها ، ويحمل الينا رجل منها خروفا صغيرا ، هدية من « الأفندى » .. وعلى الشاطىء ، كنا نرى ـ طوال اليوم ـ رجالا ونسـاء من قـرى كثيرة ، يتابعوننا ، أو ـ على الأصح ـ يتابعونه هو ، على ضفة النهر .

وقام « الأفندى » بزيارة طويلة لنا ، أهديناه خلالهـا زجاجة من نبيذ قبرص وأخرى من العرقى . وعرفنـا أن الشيخ الذى اعتقله سيساق الى بلدة (الدر) ، حيث يتلقى أربعمائة أو خمسمائة ضربة ، يترك بعدها مقيدا الى شجرة حور ضخمة ، الى أن يدفع أحد عنه كفالة ..

وحدثنا الناظر عن الضرب « بالفلقة » .. فاذا كان المراد قتل الشخص ، فان أربع أو خمس ضربات تكفى .. لقصم العنق أو تحطيم الفخـذ !.. واذا كان المنشود هو مجـرد العقاب ، فانه يضرب على مؤخرته .. والعـدد المعتـاد من الضربات هو أربعمائة أو خمسمائة ، يمرض بعدها الانسان خمسة أشهر ، أو ستة .. وهى المدة الكافية لتبديل الجلد القديم بآخر جديد . أما فى (النوبة) ، فان الضرب يوقع دائما على أسفل القدمين . ويخشى أهل النوبة هذا العقاب بشدة ، اذ يصبح المشى بعده صعبا أليما !

الشرق والغرب عنده .. يلتقيان !

(من كتاب « ذكريات أدبية » لمكسيم دوكان)

« .. ان أى معبد يبدو كغيره تماما فى عين « فلوبير » .. كما ان المساجد والمناظر الطبيعية كلها سواء لديه . ولست أوقن من أنه وهو يحدق فى جزيرة (فيله) ، لم يتنهد لذكرى مروج (سوتفيل) ، أو انه حين شاهد النيل لم يشعر بالحنين الى (السين) .. وفى جزيرة (فيله) جلس فى ظل احـدى قاعات معبد ايزيس العظيم ، ليقرأ كتاب « جيرفو » لشارل

دى برنار ، الذى اشتراه من القاهرة .. والتفكير فى أمه يجذبه دائما فى اتجاه بلدة (كرواسيه) ـ حيث تقيم ـ فى حين أن خيبةأمله فى كتابه عن «القديس انطوان» لا تزال تثير أساه.

من « فلوبير » الى أمه

(فيله) فى ١٥ ابريل ١٨٥٠ : ها نحن أولاء ، قد عدنا من النوبة فى صحة جيدة ـ اذا كان للمرء أن يقول مثل هذا القول ، بعد أن قضى شهرين طويلين ، دون أن يتلقى كلمة من أولئك الذين يحبهم أكثر ممن عداهم من البشر جميعا !

لقد عدنا الى (فيله) أمس ، والليل يرخى سدوله . وعلى الفور انطلقت مع « جوزيف » على حمار الى أسوان ـ التى تقع على مسافة فرسخ من هنا ـ على أمل العثور على حزمة من الرسائل ، ولكنى لم أجد شيئا . وخيل لى أنه قد فاتك البريد مرة واحدة ، وأن كل الرسائل الأخرى موجودة فى القنصلية الفرنسية بالقاهرة . لهذا كتبت لتوى أطلب ارسالها الى (قنا) ، والا بقيت بدون رسائل منك حتى نعود الى القاهرة فى نهاية مايو .. وبهذا أقضى أربعة أشهر دون أن أعرف ماذا حدث لك !

كانت السماء جميلة ـ ليلة أمس ـ والنجوم تتلألأ ، والأعراب يرددون أناشيدهم فوق ابلهم .. كانت ليلة من ليالى الشرق حقا ، وزرقة السماء تذوب فى فيض من تألق النجوم . **ولكن قلبى كان جد حزين يا حبيبتى المسكينة !.. اكتبى لى مرتين ـ فى كل بريد ـ بل مائة مرة لا مرة واحدة . فان الخطاب الواحد يمكن أن يضيع بسهولة ، وكم من رسائل لمكسيم اختفت .. لو أننى أوقن من أن رسائلى تصل اليك ، لما شكوت .. هذا هو سر لوعتى الكبرى ، فكم تتملكنى التعاسة اذ أتخيل قلقك !**

قد تكونين مريضة يا حبيبتى ، أو لعلك تبكين فى هذه اللحظة ، وتتأملين بعينيك الجميلتين الخريطة التى لا تبين لك منها سوى مساحة خالية ، يضيع فيها ابنك ! .. لا ، لا ، لسوف أعود .. لا يمكن أن تكونى مريضة لأن الرغبة القوية فى الحياة تصونها .. لن تلبث أن تكتمل ستة أشهر على رحيلى ، وبعد ستة أخرى لن يطول ارتقاب عودتى .. يحتمل أن يكون هذا فى يناير أو فبراير المقبل .

أحضر « الأفندى » ـ مساء أمس ـ رسائل لمكسيم .. حتى « ساسيتى » تلقى رسائل ، أما أنا فلم يصل لى شىء منك ، ولا من أخى « آشيل » الذى كان ينبغى أن يوافينى ببعض أخبارك ..

طيبة ـ ٣ مايو ١٨٥٠ : الساعة الرابعة والنصف صباحا ، وقد نهضت على عجل يا حبيبتى المسكينة ، لأرسل لك هذا الخطاب عن طريق الوكيل الفرنسى فى قنا ، وسيقوم رسول خاص ـ على صهوة جواد ـ يحمله الى القاهرة ويعود بالرسائل الواردة منك ـ اذا كانت هناك رسائل ـ فهل أكون أسعد حظا فى (قنا) منى فى (أسوان) ؟ آمل !

وصلنا الى طيبة فى التاسعة من ليلة أمس .. وقد جست خلال الأقصر فى ضوء القمر ، الذى كان يرتفع خلف صف من الأعمدة ، ليلقى ضوءه على الأطلال العظيمة : آه ، ما أجمل المساء هنا يا عزيزتى ! ... يا للنجوم ويا لليالى ! .. اننا لم نر بعد شيئا من (طيبة) ، ولكنها ولابد رائعة .. سنبقى هنا أسبوعين كما أظن !

بين قفط وقنا ـ فى ١٦ مايو ١٨٥٠ :

كنت أفكر فى صديقى « ألفريد » دون انقطاع وأنا فى (طيبة) ، كما افكر كثيرا فى الآخرين أيضا يا حبيبتى ... اننى لا أستطيع أن أعجب بما أرى فى صمت ، فلابد لى من أن

أصيح وألوح بيـــدى ، وأصرخ ، وأحطم المقاعد أو أفعل أى شىء يدعو الآخرين لمشاركتى بهجتى وسرورى .

عندما أتناول رقعة ورق لأكتب لك ، لا تكون لدى أية فكرة عما أوشك أن أقول .. ثم تبدأ الخواطـــر تتوارد من تلقاء نفسها ، وأجدنى أثرثر وأطيل الحديث . اننى أشعر بمتعة فى ذلك .. سطر يتلو سطرا . وعندما ينضب معينى أقرأ ما كتبت كأننى أودعه ، وأهمس له بأفكارى قائلا : « اذهب سريعا وقبلها نيابة عنى » .

قنا فى ١٧ مايو : فرحة ! فرحة ! ان قلبى يثب معها يا أمى العزيزة .. عشر رسائل لى بينها واحـدة من « بوييـه » ، وأخرى من « ماران » .. اننى أقبلك حتى تختنقى .. انك على ما يرام ، وأرى انك كنت عاقلة . أحبك ألف مرة من أجل ذلك . ما أعز رسائلك ! اننى التهمها كرجل جائع .. وداعا وألف قبلة مرة أخرى !

من فلوبير الى « بوييه »
بين جرجا وأسيوط ـ فى ٤ يونيو ١٨٥٠ :

فكرت فى أمورى منذ افترقنـــا يا لوى .. استرجعت حياتى الماضية باهتمام عميق ، وأنا جالس فى مقدمة مركبنا النيلى ، أرقب الماء وهو ينساب وراءنا برفق ... عادت بى الذاكرة الى أشياء نسيتها ، فكأنها مقاطع من أناشيد رددتها المربية خلال الطفولة . أترانى فى بداية فترة جديدة ، أم اننى بلغت منتهى التدهور ؟

ومن الماضى أنطلق لأحلم بالمستقبل . واننى بلا خطط ولا أفكار ولا مشروعات .. والأسوأ من ذلك اننى بلا طموح .. والسؤال الخالد « ما الفائدة ؟ » يضـع حاجزه البرونزى دائما عبر كل طريق أشقه فى عالم الافتراضات .. ان السفر لم يزدنى ابتهاجا ، ولا أدرى ان كان منظر الأطلال سيوحى لى

بأفكار عظيمة ، غير اننى أود أن أعلم مصدر السخط الذى يغمرنى ــ فى هذه الأيام ــ عندما أفكر فى أن أجعل نفسى انسانا مشهورا يتحدث عنه الناس .. لست أشعر فى قرارة نفسى بالقدرة الجسمانية على أن أنشر شيئا ، وأن أجرى الى صاحب المطبعة وأختار الورق وأصحح البروفات الخ ! من الأفضل أن يعمل الانسان لنفسه فقط . ان الجمهور شديد الغباء ، فمن الذى يقرأ ؟ وماذا يقرأ ؟ وما الذى يعجب ؟

أجل ، عندما أعود سأستأنف ــ ولفترة طويلة كما أرجو ــ حياتى القديمة الهادئة ، جالسا أمام مائدتى المستديرة بين المدفأة والحديقة .. سأعيش هناك كالعرب ، لا أعبأ بشىء .. لن أعبأ بآراء النقاد ، ولا بأى انسان على الاطلاق !

لقد رأيت « طيبة » يالوى ... انها جميلة جدا .. وصلنا اليها ذات ليلة ، فى الساعة التاسعة ، وضوء القمر يغمر أعمدة الآثار ، والكلاب تنبح ، والأطلال العظيمة البيضاء تبدو كالأشباح .. وكان القمر فى الأفق مستديرا تماما ، وقد بدا كأنه يلامس الأرض بلا حراك .. ولقد أوحى الينا الكرنك بحياة العمالقة ، فأمضيت ليلة عند قدمى تمثال (ممنون) ، يلتهمنى البعوض ... ان للوغد القديم وجها جميلا وهو مغطى تماما بالنقوش المكتوبة ومخلفات الطيور ، وهما الشيئان الوحيدان فى أطلال مصر اللذان يقدمان أى دليل على الحياة . وأكثر الصخور تفتتا لا تنبت ورقة من الحشائش ، بل لا تلبث أن تهوى مسحوقة ، وكثيرا ما ترى مسلة طويلة مستقيمة بها بقعة بيضاء طويلة تمتد على طولها بأكمله كشريط من القماش أكثر عرضا عند القمة وأكثر ضيقا عند القاعدة .. وهذا من مخلفات العقبان التى تركت علامتها هناك عبر القرون .. انه أثر جميل جدا وله رمز عجيب ، وكأنما تقول الطبيعة لآثار مصر : « لن تنالى شيئا منى .. لن تغذى بذور حشيشة

البحر ... وسوف أضع مخلفاتى عليك !! »

وفى (اسنا) شاهدت « كوجك هانم » مرة أخرى .. كانت حزينة ، وقد وجدت انها تغيرت ، فقد أصابها المرض .. كان يوما حارا ، مليئا بالغمام .. وكان خادمها الحبشى ينثر الماء على الارض ليبرد جو الغرفة .. وحدقت فيها طويلا حتى أستطيع أن أحتفظ بصورتها فى ذهنى . وعندما انصرفت قلت أننا سنعود فى اليوم التالى ، ولكننا لم نفعل .. لقد استمرأت كثيرا حرارة كل شىء ، وهذا هو الأمر الذى أجد له قيمة عندى ، وقد أحسست به فى أعماقى ذاتها !

ورأيت البحر الأحمر عند (القصير) .. كانت رحلة استغرقت أربعة أيام للذهاب وخمسة للعودة ، على ظهور الجمال ، وفى درجة حرارة كانت تصل – وسط النهار – الى ٤٥ درجة ، وهى حرارة لافحة الى حد ما .. وكنت أشعر أحيانا بحنين الى شىء من البيرة ، لاسيما أن ماء الشرب الذى كنا نتناوله من « قربة » من جلد الماعز كانت به آثار من رائحة العنزة ، فضلا عن روائح الكبريت والصابون .

وكنا نستيقظ فى الثالثة صباحا ، ونأوى الى الفراش فى التاسعة ليلا .. كنت أعيش على البيض المسلوق ، والطعام الجاف المحفوظ ، والبطيخ .. انها حياة الصحراء حقا . وعلى طول الطريق كنا نلتقى بجثث الجمال التى نفقت من الارهاق .. وهناك أماكن تجد فيها مساحات كبيرة من الرمال ، تبدو وكأنها تحولت الى نوع من مساحات ممهدة ناعمة لامعة ، أشبه بأرض مخزن حبوب لدرس الغلال ...

ولقد التقينا بقوافل كبيرة للحجاج ، تسعى الى مكة . فان (القصير) هى المركز الذى يستقلون منه السفن الى (جدة) ، التى تبعد عن (مكة) بمسيرة أيام ثلاثة فقط .. وتسير جمال القوافل واحدا وراء الآخر أحيانا ، بينما تتقدم

ـ أحيانا أخرى ـ فى صف عريض .. ورأينا فى (القصير) حجاجا من أعماق افريقيا ، زنوجا فقراء بدأوا السير منذ عام ، بل ومنذ عامين . كذلك رأينا قوما من (بخارى) ، من التتر ، يرتدون القلنسوات المدببة .. أما صائدو اللؤلؤ ، فلم نر سوى زوارقهم . وينطلق فى كل زورق رجلان ، أحدهما يجدف ، والآخر يغوص اذا ما خرجا الى عرض البحر .. وعندما يعودان ، ينساب الدم فى نزيف من اذنى وأنف وعينى الغواص ..

أما تساؤلك عن أى تغير قد يكون اعترانى خلال فراقنا ، فلا أظن يا « لوى » ان هـذا التغير ـ ان وجـد ـ كان فى صالحى ! .. بل أحسبنى فقدت الكثير من جراء تشتت بالى ، وشرود فكرى ، حتى لقد أصبحت فارغا جدا ، عقيما جدا . اننى أشعر بذلك فى أعماقى . ولعل هذا راجع الى أن جسدى فى تحرك مستمر ، وليس بوسعى أن أقوم بعملين فى آن واحد . أو ربما أكون قد خلفت ذكائى ورائى ، مع ثياب البيت ، وأريكتى الجلدية ، ومجتمعكم يا سيدى العزيز .. وبالنسبة لى ، يلوح اننى اذا أخفقت فى أول عمل أضطلع به بعد عودتى ، فسألقى بنفسى فى البحر !

القاهرة فى ٢٧ يونيه ١٨٥٠ :

ظاهرة نفسية غريبة تنتابنى . لقد عدنا للقاهرة ، ومنذ قرأت رسالتك الرائعة ، أشعر بأننى أتفجر بفيض فكرى . بدأت القدر تغلى فجأة ! أشعر بحاجة ملحة الى الكتابة !

أشكر لك زياراتك لأمى يا « لوى » ، فأنت الوحيد الذى تستطيع أمى أن تتحدث اليه عنى كما تحب أن تتحدث ، لأنك الوحيد الذى تدرك هى أنه يعرفنى حق المعرفة . هكذا ينبئها قلبهـا .

ما أحسبك تصدق اننى و « مكسيم » لا نكف عن الحديث عن مستقبل المجتمع . وفى رأيى انه من المحقق انه سينتظم على نسق أية كلية ، ان قريبا أو بعيدا . وسيقوم المدرسون بوضع القواعد ، وسيكون كل امرىء فى زى موحـــد ، ولن تعود الانسانية الى ارتكاب الأعمال الهمجية . ولكن ، أى أسلوب تعس هذا ! أى افتقار الى الشكل ، والتناسق ، والروح !

من مذكرات فلوبير فى نهاية الرحلة

الاثنين أول يوليو ١٨٥٠ – القاهرة :

آخر يوم لى فى القـاهرة . تبـادل الوداع . ان حزنى للرحيل يجعلنى أدرك مدى الغبطة التى لابد اننى أحسست بها يوم وصولى ..

لن أرى الفلاحين مرة أخرى .. لن أرى طفلا يستحم فى قناة الساقية الصغيرة ..

بولاق : وداع من البحارة . . كان الانفعال الحقيقى بالأمس عندما ودعنا « الريس ابراهيم » وعانقناه ..

ليلتنا الأخيرة .. ظللنا مستيقظين حتى الثالثة صباحا .. طلع الفجر وبدأت الديكة تصيح .. ان شمعتى ما زالت مضيئة ، ولكنى أتفصد عرقا ، وعيناى تلتهبان .. اننى أشعر بنوبات من القشعريرة فى الصباح .. سوف نغادر القاهرة بعد أربع ساعات .. يا الله كما يقول العرب !

من الاسكندرية الى بيروت : ركبنا السفينة « الكسندرا » فى الساعة الواحدة ، ولكنها تعطلت . لن نرحل قبل الغد .

رحلت السفينة وأنا نائم .. لم أســـتطع أن أرى أرض مصر وهى تختفى عند الأفق، قبل أن أودعها الوداع الأخير ..

ترى هل أعود مرة أخرى ؟!

....



العَهْد!

قصة للكاتب السويسرى

فريدريش دورينمات

عرض وتلخيص : الدكتور حسين مؤنس

هذه القصة ..

أحسب أننى عرفت فريدريش دورينمات Friederich Duerrenmatt قبل قرابة العشرين سنة ..

كنا طلابا فى كلية الآداب بجامعة زيوريخ . ما كان أحد منا يعرف ـ اذ ذاك ـ من سيكون ماذا ... كنا نتجمع فى مشرب صغير ، لا يزال قائما فى ردهة الكلية .. مشرب لا يتسع لاكثر من عشرة أشخاص ، ولكنه كان فى نظرنا ـ اذ ذاك ـ شيئا عظيما ..

هناك كنا نلتقى بعد دروس الادب الالمانى التى كان ـ ولا يزال ـ يلقيها الاستاذ ((اميل اشتايجر)) . وكنت آخذ بطرف فى المناقشات الادبية ، التى تدور بين هذا الاستاذ وتلاميذه . وأذكر أننى أثرت ـ ذات مرة ـ موضوع الملحمة الشعرية ، والى أى مدى يمكن أن تعتبر مادة تاريخية .. لا أذكر الآن ماذا كان رأيى اذ ذاك ، أو ماذا كان رأى الآخرين ..

ولكنى أذكر أننى كنت أعرف أن ((فريدريش دورينمات)) هذا من قرية (كونولفنجين) فى مقاطعة (بيرن) ، وهى قرية قضيت فيها بعض الوقت . وذات مرة ، قال لى أستاذ الاجتماع ـ وهو اليوم أستاذ لنفس المادة فى جامعة كولونيا ـ أن هذا الشاب ((دورينمات)) كتب مقالا ممتعا فى مجلة ((الفيلت فوخه)) ، وأنه من الممكن أن يكون كاتبا كبيرا يوما من الايام .

وصار ((فريدريش دورينمات)) كاتبا كبيرا بالفعل .. كبرى مسرحياته ((زيارة السيدة العجوز)) ، مثلت على مسارح الدنيا بكل لغة .. وروايته ـ التى أقدمها اليوم ـ أصبحت من معالم القصص فى عصرنا .

والرجل اليوم فى السابعة والاربعين من عمره ، فقد ولد سنة ١٩٢٣ ، وكان أبوه قسا بروتستانتيا .. ودرس الآداب واللاهوت فى جامعة زيوريخ ، ثم انصرف بعد ذلك للتأليف .

ومن حسن الحظ أنه لم يجر فى طريق ((الابسوردية)) أو اللامعقول ، بل أنشأ أدبه على الاصول التى تواضع الناس عليها ، منذ عرف الناس الانشاء الأدبى ، وهى أن يكون الكلام واضحا مفهوما ، والأفكار انسانية أو مقبولة عند الناس على الاقل .. ومن ثم فأنت لا تعانى معه ما تعانيه مع الكثيرين ممن يكتبون فى عصرنا ، وبخاصة ((صمويل بيكيت)) و ((كارل تسوكماير)) ، ومن اليهما .

سخرية من القصص البوليسى المرتب المحكم

القصة التى أقدمها اليوم ، قصة بوليسية ..

هكذا تبدو فى ظاهرها ، وبهذا ينطق القالب الذى صيغت فيه . ولكنها — فى الحقيقة — تأخذ بعد البداية مباشرة ، اتجاها يختلف كل الاختلاف عن اتجاه ما نعرف من القصص البوليسى .. تتحول الى دراسة نفسية ، مأساة رجل بوليس وقف عاجزا أمام جريمة لا حل لها .. هنا تشبه القصة — من بعيد — « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم .. هى الأخرى تبدأ وكأنها قصة بوليسية ، لتتحول بعد ذلك الى صورة انسانية بالغة الابداع .

قصتنا هذه تبدأ بجريمة قتل .. صبية فى الرابعة عشرة من عمرها ، اعتدى عليها وحش آدمى ، ثم قتلها وشوه جسدها بموسى ، وألقى جثتها فى غابة ، ومضى دون أن يخلف أدنى أثر . عقب هذا تبدأ التحقيقات والبحوث البوليسية المعروفة ، دون نتيجة .. **بقية القصة هى حكاية مفتش البوليس الذى جن جنونه أمام هذه الجريمة ، ورصد حياته لكشف سرها ، وما زال يلح فى ذلك ، حتى تحطم هو نفسه وضاع عمره بددا !..**

انها — فى حقيقتها — سخرية من القصص البوليسى .. « دورينمات » نفسه يقول هذا ، على لسان مفتش آخر ، فى حديث له مع أحد الكتاب .. يقول مفتش البوليس : « .. المشكلة اننا نجد فى كل هذا القصص البوليسى ، الذى يكتبه الكتاب ، لونا مختلفا من التزييف ، يتكرر ويتردد . اننى لا أشير بذلك الى ما يحدث عادة فى هذه القصص ، من القبض على المجرم وانزال العقاب به .. فمثل هذه الأساطير الخرافية اللطيفة ضرورية فيما أظن . انها من ذلك الطراز من الأوهام الذى يعين على حفظ النظام ، مثلها فى

ذلك مثل العبارة الورعة التى تتردد قائلة ان الجريمة لا تثمر ، فى حين أن أى انسان لا يحتاج الى أكثر من تأمل أحوال المجتمع ، ليتبين مقدار الحقيقة فى هذا القول ! .. لا بأس عندى فى أن أسلم بهذه الأوهام ، ولو لمجـرد صالح المهنة التى نقوم بها ، فان كل جمهور من الناس ، أو من دافعى الضرائب ، له الحق فى أن يستمتع بأبطاله ونهاياتهم السعيدة .. ونحن ، رجال البوليس ، وأنتم — الكتاب — ملزمون بأن نقدم للناس هذه المتعة .. هذا كله لا يضايقنى ، أما الذى يثير غضبى ، فهو التصميم القصصى — Plot — الذى تقدمونه ، هنا يبلغ الزيف الى أن يصبح بالغ الجفوة وقلة الحياء .

« اننا لا نستطيع أن نحل معضلة جريمة كما نحل معادلة رياضية ، لأننا لا نملك كل المجهولات اللازمة .. فى العادة ، نعرف قليلا من هذه المجهولات ، وأقلها أهمية بصورة خاصة .. ان الحظ — ذلك الشىء الذى لا يمكن حسابه أو تقديره — يلعب دورا أكبر مما ينبغى له . قواعدنا مبنية على الاحتمالات والاحصائيات ، لا على العلل الحقيقية . انهـا تنطبق على الواقع ، فى صورة عامة فقط .. ان أدواتنا لكشف الجرائم غير كافية ، وكلما حاولنا ضبطها وتحديدها ، ظهرت قلة كفايتها بصورة أوضح !

« ولكنكم — معشر المشتغلين بالأدب — قلمـا تحفلون بذلك . لا تريدون أن تشغلوا أنفسكم بهذا اللون من الحقائق الذى يفر من بين أصابعنا دائما .. بدلا من هذا ، تنشئون عالمـا تستطيعون التحكم فيه .. هذا العالم ربما كان كاملا .. من يدرى ؟.. ولكنه — أيضا — أكذوبة !..

« لا بد لكم من التخلى عن ذلك الكمال المفتعل ، اذا كنتم تريدون أن تصلوا الى شىء .. اذا كنتم تريدون أن تصلوا

الى حقائق الأشـياء .. بدون هذا ، ستجدون أنفسكم متخلفين دائما ، تلهون بألاعيب أسلوبية ..! »

هذه السطور تلقى ضوءا كاشفا على طبيعة القصـة التى سنقرأها . انها جريمة ملغزة ، من النوع الذى يواجه رجال البوليس فى معظم الحالات .. جريمة دون مفاتيح ، جريمة لا نجد فيها هذا الترتيب الهندسى ، الذى نجده عند «كونان دويل» ، و «جورج سيمينون» ، «وأجاثا كريستى» و « ايان فليمنج » .. الترتيب الجميل المحكم ، الذى يهدى رجل البوليس الذكى الى الحقيقة خطوة خطوة ..

فى قضيتنا هذه ، لا يوجد مفتاح واحد . ومعنى ذلك أن رجل البوليس لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة ..

فى مثل هذه الجرائم – وهى الغـالبية – يسـتمر التحقيق والبحث حينا ، ثم تقفل القضـية ، تدرج تحت ما يسمونه : « جنايات من فعل مجهول » .. ثم تتراكم من ورائها القضايا والجرائم ، لأن الدنيا لا تتوقف . قد ينكشـف سرها يوما ما ، ولكن شـيئا لا يحدث اذا لم ينكشف !

ولكن ، ما الذى يحدث اذا أصر واحد من رجال البوليس على أن يكشف أمر جريمة من هذا الطراز ؟ .. اذا أراد أن يواجه جريمة طبيعية ، من النوع الذى يحدث كل يوم ، وأصر على أن يصل الى سرها ؟ ..

ذلك هو الموضوع الطريف الذى يعالجه « فريدريش دورينمات » فى هذه الرواية ..

أشياء تحتاج الى تفسير

نبدأ القصة اذن من أولها ..

« دورينمات » رجل واقعى جدا ، يقص عليك ما يريد فى بساطة تحسب معها أن يده كفنان لم تتدخل فى العمل

قط .. فى نهاية القصة فقط نشعر أن بساطته تلك هى عمله كفنان ، وانها فى ذاتها عمل عسير كل العسر .

لقد سمع القصة من رئيس سابق لادارة البوليس فى (زيوريخ) ، ثم أصبح هذا الرجل نائبا فى البرلمان ، لقيه فى مدينة (خور) — أو (كوار) كما يقولون — بالفرنسية — وهى عاصمة مقاطعة (الجراوبندن) أو (الجريزون) .. كان الكاتب قد ذهب الى هناك ليلقى محاضرة عن فن القصص البوليسى ، ولم يحضر المحاضرة الا نفر قليل . وكان الجو باردا ثقيلا ساكنا .. وعاد الى فندقه ، وهناك لقى رئيس البوليس السابق هذا .. شربا وسهرا معا ، بحكم الضرورة ، لا عن استلطاف أو مودة ، واتفقا على أن يعودا فى الغد الى زيوريخ ، فى سيارة رئيس البوليس .

فى الغد ، مضت بهما السيارة من (خور) نحو زيوريخ .. فى الطريق وقفا عند محطة بنزين .. على مقعد فى تلك المحطة جلس رجل مسن ، مهمل الهيئة ، يبدو لأول وهلة أنه فى حالة غير طبيعية .. تبينا بعد قليل أنه صاحب المحطة فطلب اليه مدير البوليس ، ان يملأ الخزان وينظف درع الريح الزجاجى .. ثم مضيا الى مشرب ملحق بالمحطة .. كل ما فى المشرب يثير الاشمئزاز .. المنظر العام ، والسيدة التى تعد المشروبات ، والفتاة التى تخدم ، ثم .. القهوة التى شرباها !

كان يبدو بوضوح ان رئيس البوليس يعرف جميع أولئك الناس ، وهم يعرفونه .. وعندما خرجا ، وجدا الرجل جالسا كما كان ، بعد أن ملأ الخزان ونظف زجاج السيارة . انصرف رئيس البوليس دون أن يحييه . وقبل أن تتحرك السيارة بهما ، رآياه يهز يده فى شبه جنون ويقول :

– سأنتظر .. سأنتظر .. سيأتى .. لا بد أن يأتى !

رجل مثالي .. وفرصة جميلة ضاعت !

كان لا بد أن يكشف مدير البوليس لرفيقه عن سر هذه المحطة ، والمشرب الملحق بها ، والرجل الجالس هناك . ولم يكن الكاتب بحاجة الى أن يطلب اليه ذلك ، فقد كان من الواضح أنه يريد أن يتكلم ..

قال ، بعد مقدمة يسيرة : هذا الرجل العجوز اسمه « ماتاى » . كان من أنجب مفتشى البوليس عندى .. كان يحمل درجة « كابتن » ، لأننا فى قوات البوليس – فى المقاطعات – نحمل ألقابا عسكرية . كان رجل قانون مثلى ، حصل على دكتوراه فى القانون من جامعة (بازل) ، وكان ميالا الى الوحدة بطبعه .. كان شديد الدقة فى عمله ، يسير فى حياته كأنه آلة مضبوطة ، حتى سماه زملاؤه .. « مات در أوتومات » .. (ماتاى الأتوماتيكى) .

وكان دائما حسن الهيئة والزى ، مستعدا للعمل .. ولم يكن يدخن أو يشرب . كان يأخذ عمله أخذا عنيفا جعله قليل الحظ من حب زملائه ، برغم توفيقه الكبير . كان عزبا ينفق وقته كله وجهده كله فى عمله .. ولم يكن له بيت ، فكان يقيم فى غرفة ، فى فندق (أوريان) ، فى ميدان (بلقى) .. لم أسمعه مرة واحدة يتحدث عن حياته الخاصة ، ربما لأنه لم تكن له حياة خاصة .. كان عنيدا شديد العزم ، لا يكاد يتعب من العمل ، ولا مكان للعاطفة فى تفكيره أو عمله !

قبل تسع سنوات – وهو التاريخ الذى بدأت فيه مأساة « ماتاى » هذا – كان قد وصل الى القمة فى عمله . كان مساعدى الأول ، وكان بديهيا أن يخلفنى ، فقد كنت اذ ذاك فى أواخر سنوات عملى ، وكان من الطبيعى أن يفكر ولاة الأمور فيمن يخلفنى . ولكن فكرة ترقية « ماتاى »

مكانى كانت تلقى بعض الصعوبات فهو ـ اولا ـ لم يكن ينتسب لأى حزب سياسى .. ولم تكن هذه بالعقبة الكبيرة . أما العقبة الحقيقية ، فكانت نفور رجال البوليس منه ، وخوفهم من أن يسوقهم سوقا عنيفا .. ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يعترضوا عليه .. وفى نفس الوقت ، لم يكن من الممكن للجهات العليا أن تتجاهل هذا الاعتراض ، ولم يكن ممكنا كذلك أن تتخطى أكفأ الموجودين . **ولهذا فعندما تلقت حكومة الاتحاد فى (برن) طلبا من حكومة (عمان) أن تندب لها رجلا كفءا ليقوم بتنظيم البوليس ، بدا هذا الطلب كأنه استجابة لدعوة حارة . فأسرعت ادارة مقاطعة زيوريخ باقتراح اسم « ماتاى » ، ووافقت كل من (برن) و (عمان) . وسر « ماتاى » بذلك ، فقد وجد فيه فرصة لتغيير الجو والقيام بعمل جديد . وأفضى الينا بأنه ـ بعد أن ينتهى عقده مع حكومة الاردن ـ لن يعود الى بوليس (زيوريخ) ، بل سيرتب أمر معاشه ، ثم يذهب الى (الدانمرك) ليعيش مع أخت له ترملت هناك .**

وتمت الاجراءات على عجل .. رتب « ماتاى » شؤونه ، وأتم الاتفاق مع (الأردن) ، ولم تبق الا أيام قليلة ليسلم عمله لهنزى ـ المساعد الثانى بعده ـ ثم تمضى به الطائرة ، عابرة جبال الألب والبحر الأبيض .. كان هذا هو المنتظر ، عندما دق جرس التليفون ـ فى مركز البوليس ـ فى عصر يوم من تلك الأيام . كان المتحدث تاجرا متجولا يسمى « جونتن » ، يعرفه « ماتاى » معرفة جيدة ، اذ كان قد ارتكب ـ قبل ذلك ـ جريمة أخلاقية حققها « ماتاى » ، وأدين فيها الرجل ، فقضى فى السجن فترة ..

تكلم الرجل من قرية صغيرة بجوار زيوريخ ، تسمى (ميجندورف) ، وقال انه عثر على جثة صبية مقتولة ، فى غابة قريبة من البلدة .

وكان من الطبيعى أن يتضايق « ماتاى » ، فهذه هى أيامه الأخيرة فى العمل ، وما كان يحب أن ينفقها فى تحقيق جناية منفرة مثل هذه ، ثم ان المطر كان ينهمر مدرارا ، والجو مع ذلك حار خانق ، مع أننا كنا فى النصف الثانى من ابريل .. ولكننى كنت متغيبا فى (برن) ، فلم يكن لـ «ماتاى» مفر من أن يتولى القضية ، ريثما أعود على الأقل .. فطلب الى (جونتن) أن يبقى حيث هو ، ثم اتصل بمركز البوليس فى القرية ، فرد عليه الجاويش « ريزن » ، وأبلغه أن المطر غزير فى (ميجندورف) أيضا . فأمره بأن يراقب التاجر المتجول ، وكان جالسا ينتظر فى مشرب الهيرش (الوعل) . ثم أخطر وكيل النيابة ، والملازم « هنزى » ، والسائق فيللر .. وبعد قليل ، انطلقت بهم السيارة نحو القرية الصغيرة .

جريمة بشعة ورجل تحوم حوله الشبهات

عندما وصل الركب الى القرية ، تبين « ماتاى » أن الأمر بمراقبة « جونتن » كان خطأ جسيما ، فان (ميجندورف) قرية صغيرة ، أهلها فلاحون ، لا يخطر ببالهم الا أن هذا البائع المتجول هو المجرم .. وأهل القرى ينفرون عادة من الباعة المتجولين ، الذين يتنقلون من قرية الى أخرى ، حاملين حقائب فى أيديهم ، يبيعون أشياء صغيرة ، مثل شفرات الحلاقة والصابون وأربطة الأحذية والعطور والدبابيس والفرش وما أشبه ذلك .. فلم يكد الخبر ينتشر ، حتى أخذ الفلاحون يفدون الى المشرب ، ويتجمعون ببابه ، ونذر الشر بادية فى أعينهم !

وذهب « ماتاى » ومن معه الى الغابة ، مصطحبين البائع المتجول .

هناك وسط كومة من ورق الشجر والحطب ، تمددت صبية فى نحو الرابعة عشرة من عمرها ، كان نصفها الأسفل

عاريا ، وقد عبث المجرم به عبثا فظيعا ، ورقبتها مجروحة ــ بل ممزقة ــ فى أكثر من موضـــع . من حسن الحظ أن الوجه سلم من هــذا التشــويه ، ولــكن المنظر كان بشعا ، لا يستطيع تثبيت النظر فيه الا رجل بوليس معتادا على هذه الأشياء .

غير بعيد من ذلك الموضع ، وجدوا نصف الرداء الأسفل مخضبا بالدم ، ملفوفا ومدفونا فى التراب وورق الشجر ..

وأجريت الأعمـــال الروتينية بغــاية الدقة ، وأخذت مجمــوعة كبيرة من الصــور الفوتوغرافية . وقام الطبيب الشرعى بالكشف الأول ، ودون ملاحظاته .. ثم أذن وكيل النيابة بنقل الجثة الى أقرب مستشفى . وتبين أن القتيلة تسمى « جريتــلى موزر » .. ابنــة وحيــدة لزوجين من الفلاحين ، يعملان قرب الغابة .

ذهب « ماتاى » وأبلغهما الخبر .. كان مشهدا عنيفا مؤثرا ، ولكن لم يكن من ذلك بد .. وبعد أن أفاقت الأم من صدمة الخبر المفاجىء ، نظرت اليه بعينين قويتين ــ تجمدت فيهما لوعة الألم المضنى ــ وقالت :

ــ من القاتل ؟

ــ سأبحث عنه ..

ــ أتعد بأنك ستفعل ذلك ؟

ــ أعد يا « فراو » موزر .. (أى السيدة موزر)

ــ وتقسم على هذا بخلاص روحك ؟

ــ أقسم ..

ــ تستطيع أن تذهب الآن !..

وابتعد « ماتاى » فى سرعة .. وقبل أن ينحرف ويختفى عنه منظر البيت ، سمع صرخة عالية شقت الفضاء ، أعقبها انفجار بكاء .. ذلك ألم الوالدين !.. اهتز كيانه كله ، وزاد

اسراعا فى خطوه ، وقد قرر أن يبذل كل ما يستطيع ، ليجد ذلك المجرم .

فى سورة الغضب هم الناس بالفتك بالمتهم

عندما عاد « ماتاى » الى (ميجندورف) واجه أولى مشاكل هذه القضية المحزنة .. كان أهل القرية وما جاورها من الحقول ، قد سمعوا بأن « جونتن » ـ البائع الجوال ـ له يد فى هذه القضية ، على صورة ما .. فقطعوا بأنه المجرم ، خاصة وقد وجدوا أن البوليس رصد رجلا لمراقبته ، وأخذوا يتجمعون شيئا فشيئا أمام المشرب ، الذى جلس هذا المسكين فيه .. ثم وصلت سيارة البوليس الكبيرة ، ورأى رجال البوليس أن الأفضل أن ينقل « جونتن » اليها .. **وتم ذلك ، وجلس الرجل فى السيارة بين اثنين من رجال البوليس ، فلم يشك رجال القرية فى أنه المجرم ، وأحاطوا بالسيارة وطالبوا بتسليمه اليهم ليقتصوا منه . وحاول « ماتاى » ووكيل النيابة ورجال البوليس أن يصرفوهم عن ذلك دون جدوى .**

كان غضبهم يشتد دقيقة بعد دقيقة ، وأقبل ناس من القرى المجاورة ليشدوا أزرهم . وبدا بوضوح أن الأمر سينتهى بهجومهم على السيارة ، وأخذ الرجل وشنقه على شجرة ..

وأخيرا لجأ « ماتاى » الى اقناع أولئك الناس بسخف ما يريدون ، فى بلد تعتبر العدالة الكاملة من أسس الحكم الرئيسية فيه . فأعلن اليهم أنه مستعد لتسليم « جونتن » اليهم ، اذا تعهدوا بأن يعاملوه معاملة عادلة ، وتحملوا مسئولية ذلك . ودارت بينه وبينهم مناقشة تعتبر نموذجا لما يجرى بين أهل سويسرا من المناقشات فى شئونهم العامة ، وهى مناقشات تضع يدك على سر سلامة نظم هذا البلد ومتانتها ، فهى قائمة على أساسين لا ثالث لهما : الحرية والمسئولية .. حرية كل مواطن فى أن يقول ما يريد ، وفى

أن يستمع الناس له فى احترام .. ثم مسئولية كل مواطن عن كل عمل يقوم به ، وهى مسئولية كاملة لا تعرف التجزئة أو التحايل أو القاء بعضها على الغير .

فى نهاية هذه المناقشة ، تبين الناس أنهم لا يستطيعون تحمل مسئولية ما يطلبون ، وان المعقول والعادل هو أن يترك الأمر للبوليس ، وتتحرك سيارة البوليس أخيرا .. ويودع « جونتن » السجن ، ويبدأ التحقيق .

هذا هو كل ما عرفه المتهم عن الجريمة

قص « جونتن » على المحققين ما كان يعرفه ..

قال انه زار قرية (ميجندورف) ، وباع أشياء قليلة ، يوم الحادث .. ثم حان وقت الغداء ، فمضى بسفط طعامه الى حافة الغابة الصغيرة ، ليأكل ويستريح قليلا ، ثم يعود الى القرية . ولكنه فضل أن يذهب الى مشرب « الهيرش » فذهب ، وأكل ، وشرب قدرا كبيرا من البيرة . ثم ذهب الى الغابة ، واستلقى على حافتها ونام ..

ولم يدر ما الذى أيقظه قبل أن يستتم نومه .. خيل اليه أنه سمع صوتا مفزعا ، أشبه بصرخة مكتومة ، أو صراخ طائر .. ظن أنه صوت بومة .. أفاق قليلا ، ثم غلبه النوم . لم يطل نعاسه هذه المرة ، اذ أيقظه سكون الغابة الرهيب حوله .. وعاد الى ذاكرته الصوت المفزع الذى سمعه .

شعر بشىء من الخوف فنهض ، ونفرت نفسه من فكرة العودة الى (ميجندورف) ، وقرر العودة الى المدينة عن طريق الغابة ، متحاشيا الجاويش « ريزن » ، وهو رجل البوليس فى (ميجندورف) .. وفى نقطة ما من الغابة ، عثرت قدماه بشىء فوقع .. وريع اذ تبين أنه وقع على جثة قتيلة مغطاة بأوراق الأشجار .

لم يضيع وقتا .. فأسرع الى (ميجندورف) ، واتصل

ببوليس زيوريخ ، وتحدث الى الرجل الذى كان يعرفه هناك ، وهو « ماتاى » . وذلك كل ما يعرف عن الموضوع .

كان احساسى أن الرجل لا علاقة له بجريمة القتل .. حقا انه كان شخصا منفرا لا يدعو الى الثقة ، ولكن هذا شعور شخصى .. ومهما ساء الظن فيه ، فهو لا يحمل طابع القتلة أو السفاكين .. ولكن الاجراءات هى الاجراءات ، وكان علينا أن نسير فيها الى النهاية ..

هنا كان ينبغى أن تنتهى القصة

خصصت خيرة رجالى للقضية .. كان المفروض أن يتولاها الكابتن « هنزى » ، الذى تقرر ان يخلف « ماتاى » ، ولكن هذا الأخير كان خير رجالى ، ولم أجد مفرا من الاعتماد عليه فيها ، الى أن يرحل .

وهكذا أخذ الرجل يعمل فى القضية وهو شبه مستقيل من عندنا ، ووظيفته الجديدة تنتظره فى عمان بعد أيام !

وقمنا بكل البحوث الممكنة . لم ندع شبرا من أرض الغابة دون بحث .. حللنا كل المواد التى عثرنا عليها .. أبلغنا كل المصابغ و « جراچات » السيارات ، لعل قطعة ثياب أو سيارة — عليها بقع دم — تصل اليها .. درسنا تاريخ البنت وخلقها وعاداتها ، وسبب ذهابها الى الغابة وما أشبه .. ولم نصل الى شىء !

هذه معضلة بلا مفاتيح ، بل بلا مفتاح واحد !

ولكن لأمر ما ، كان الجميع ميالين الى اتهام « جونتن » .. استجوبه « هنزى » مائة مرة ، حتى انهك قواه ! .. وفى مثل هذه الحالات ، لا بد أن يقع تضارب فى الأقوال . وحينما يقص الانسان نفس القصة مائة مرة — الأولى فى الساعة الثانية بعد الظهر ، والأخيرة فى الرابعة صباحا — لا يمكن أن تتفق القصتان تماما ..

وكان « هنزى » رجلا عنيفا بغيضــا .. رجوناه مائة مرة أن يقلع عن أساليبه ، ولكن أمثاله لا يسمعون النصح .. انه شاب من أسرة موسرة ، تزوج فتاة من أسرة غنية أيضا ، ووصل الى أن يحل محل « ماتاى » وهو بعــد فى حوالى الخامسة والثلاثين .. شاب كهذا لا يؤمن الا بنفسه ، وقلما يفيد من تجارب الآخرين .

وفى مساء اليــوم التالى ، أتانى باعتراف الرجل ! نعم اعترف « جونتن » هذا بأنه هو القاتل !..

ولم أصدق أنا ، ولم يصدق « ماتاى » ذلك . فذهبنا وســألنا الرجل ، فأكد اعترافه .. كشفنا عن آثار ضرب أو سوء معاملة .. لا شيء !

أمام هذا ، لم يكن فى استطاعتنا الا أن نســلم بصحة الاعتراف ..

كسب « هنزى » نصرا باهرا ، فى أول قضية تولاها .

ولم يطــرب « ماتاى » للأمر .. هز كتفيــه فى انكار وصمت .. على أى حال ، كان عمله معنا قد انتهى فعلا ، وبعد غد تحمله الطائرة الى (الأردن) ..

وفى مساء يوم الاعتراف نفسه ، فوجئنا بأن « جونتن » انتحر .. وجد البائع الجائل مدلى من حبل فى غرفة سجنه .. شنق نفسه !

على هذه الصورة انتهت القضية نهائيا ، بالنسبة لى ، ولبوليس زيوريخ ، وللقضاء ..

ولكن ماتاى أصر على الوفاء بعهده

ولكنها ـ مع الأسف الشديد ـ لم تنته بالنسبة لـ« ماتاى » ! **.. شىء أشبه بالجنون تمكن من هذا الرجل .. كان مؤمنا بأن « جونتن » لم يفعل شيئا ، وأن المجرم لا يزال طليقا !**

قبل سـفره بيوم ، ذهب الى (ميجندورف) ، وحضر

جنازة الفتاة القتيل « جريتلى موزر » ، ورأى رفيقاتها فى موكب الجنازة .. وامتلأت نفسه بالغيظ والخوف .. الغيظ من المجرم الوضيع ـ الذى عدا على فتاة بريئة ـ والخوف من أن يعتدى على فتاة أخرى من رفيقاتها !

وهذا حق .. ما دام مثل هذا الرجل طليقا فالخطر قائم .. وقد سبق أن ارتكبت ـ قبل هذه ـ جريمتان مماثلتان ، فى مكانين على نفس الطريق من (زيوريخ) الى (خور) .. الأولى فى (سان جالن) ، والثانية فى (شفيتس)

وفى اليوم التالى ، ذهب الى المطار ليرحل الى عمان .

فى المطار ، وجد عشرات البنات الصغيرات ، أتت بهن مدارسهن فى رحلة للمطار .. وأحس وهو يتأملهن أنهن فى خطر ، وأنه لا يليق به أن يتركهن تحت رحمة مجرم فاتك ويمضى ..

فجأة ، ألغى سفره ، وعاد الى زيوريخ !

وجاء ليقابلنى .. جاء ليقول انه يريد أن يسير فى القضية !.. اعتذرت له ، فهذه قضية انتهت رسميا ، ثم انه لم يعد يعمل معنا ، فليس من حقه أن يتولى قضايانا !.. أضف الى ذلك ، أن هناك اتفاقا رسميا بين حكومة الاتحاد السويسرى وحكومة الأردن ، وهذا الاتفاق ينبغى أن ينفذ .. لا بد أن يترك هذا الجنون ويرحل !

ولكنه لم يترك هذا الجنون ، ولم يرحل .. قرر أن يتعقب القاتل لحسابه الخاص .. قرر أن يتعقب قاتلا وهميا فى رأيى ، لأن القاتل الحقيقى اعترف ووقع على اعترافه ، ثم انتحر !

لم يكن فى يد ((ماتاى)) خيط واحد مفيد ، ولكن هوسه بالعثور على القاتل جعله يتصور أن فى يده خيطا ..

ذهب الى (ميجندورف) وتحدث الى صبية كانت صديقة

لـ «جريتلى موزر» ، فعرف منها أنها رسمت صورة ما ـ بالقلم الرصاص ـ قبل أن تموت بأيام .. وقد رسمت فى الصورة ماردا ، وقنافذ ، وتيسا ، وشيئا يشبه سيارة كبيرة سوداء !

بعد تفكير طويل ، أتانى ليقول ان المارد يرمز الى أن المجرم رجل ضخم ، وأن القنافذ ترمز الى نوع من الشيكولاتة كان القاتل يعطيه لـ « جريتلى »، وأن التيس هو شارة مقاطعة (جراوبندن) .. ومعنى هذا ، أن القاتل يركب سيارة سوداء كبيرة ، فى (الجراوبندن) .. وحيث أن الجرائم الثلاث ارتكبت على نفس الطريق ، فلا بد أن القاتل يمر خلاله بسيارته !

ولكى يعثر عليه ، اشترى محطة بنزين ، ليعمل فيها بنفسه ويراقب ..

ثم تبنى فتاة فى هيئة « جريتلى موزر » لتكون طعما للقاتل !

لم يكن يشك فى أن القاتل سيقع قريبا .. ولكن القاتل لم يقع ، لا قريبا ولا بعيدا .. ظل « ماتاى » ينتظر وينتظر .. كانت المحطة تغل ربحا لا بأس به .

وطول النهار ، كان « ماتاى » يظل واقفا على قدميه يتأمل كل سيارة سوداء كبيرة .. وعلى مقربة منه كانت تجلس الفتاة الصغيرة ـ التى تشبه « جريتلى » ـ واسمها « آن مارى » .

ومرت شهور ثم سنون .. و « ماتاى » ينتظر !

ومع طول الانتظار العقيم ، وتركيز أفكاره فى نقطة واحدة ، أخذت شخصيته تنحل شيئا فشيئا .. وأهمل مظهره ، فلم يعد يحلق ذقنه أو يعنى بشيابه .. وأهمل النظافة ، فكان لا يكف عن القاء أعقاب السجائر على الأرض .

وكان قد أخذ أم الفتاة الصغيرة ، لتعمل فى بيته .

وحسبت المرأة أنها أعجبته، فلما عرفت أن غرضه كله ان يتخذ ابنتها طعما لقاتل ، احتقرته !.. وكانت من أصلها امرأة سوء ، فمضت تسىء معاملته ، ثم أنشأت من ماله ذلك المشرب الذى رأيته . ولم يحفل « ماتاى » بشىء من ذلك .. وصل الى الحال التى رأيناه فيها — فى أول القصة — دون أن يشعر .. كان لا يزال ينتظر القاتل .. **وقبل أن أحال الى المعاش بأيام ، استدعتنى سيدة تسمى « شروت » الى مستشفى زيوريخ ، لأسمع اعترافا خطيرا منها وهى على فراش الموت ..**

وانتهيت الى الغرفة التى رقدت فيها المحتضرة . قصت على قصة سخيفة تملأ مجلدات .. وكان الى جانبها قس يقول بين الحين والحين : « أختصرى قصتك يا فراو شروت ، والا فلن يتسع الوقت لاعطائك البركة الأخيرة ! »

وبشق النفس ، عرفت أن هذه السيدة تنحدر من أسرة من أسر مدينة (بازل) الموسرة ، وانها من أسرة « شتيتزلى » ذات الصيت البعيد ..

وكان لها زوج مجنون يسمى « البرت » .. كان جنونه يخيل له أن السماء تأمره بقتل فتيات صغيرات ، ذوات شعر ذهبى ، و « جونلات » حمراء .. قتل بالموسى فتاة تسمى « سونيا » — فى مقاطعة (سان جالن) — وأخرى تسمى « ايفيلى » فى مقاطعة (شفيتس) ، وثالثة تسمى « جريتلى » فى (ميجندورف) .

وقالت المرأة ان هذا المجنون المنكود أراد أن يقتل رابعة ، كانت تجلس الى جانب محطة بنزين ! .. بنتا جميلة لطيفة ، ذات شعر أصفر و « جونلة » حمراء .. بالضبط من النوع الذى يحبه ألبرت !.. ولكنها — أى زوجته التى تحتضر الآن — غضبت وأنبته تأنيبا شديدا ، فأخذ سيارته

« البويك » السوداء ، وخرج بها فاصطدم بشجرة ومات !

وقبـــل أن تغيب الشمس ، كانت المرأة قد أسلمت الروح ..

وختم رئيس البوليس السابق كلامه قائلا : « أنت ترى أن « ماتاى » كان على وشك أن يضع يده على القاتل .. كان تقديره كله صحيحا ، لولا مصادفة سيئة .. لولا تأنيب السيدة لهذا المجنون !..

« ولقد قصصت ذلك كله على « ماتاى » .. أصغى الى وهو شبه غائب عن الوجود كعهده ، ثم ابتسم ساخرا منى .. تصور أننى أكذب عليه !.. وقال دون أن يلتفت الى : سيعود القاتل يوما ما .. سأقبض عليه ! »

إبن الجارية

مسرحية للأديب الزنجي الأشهر
"لانجستون هيوز"



MULATTO (A PLAY BY : LANGSTON HUGHES)

كيف استطاع الزنوج أن يفرضوا أدبهم ؟

● لم يكن للزنوج فى أمريكا ـ حتى العشرينات من هذا القرن ـ أدب ولا مسرح .. اللهم الا ما كان البيض يكتبونه عنهم .. واللهم سوى أدوار « مصطنعة » ، كان البيض يؤدونها على المسرح ، وهم يصبغون بشرتهم بالسواد ! .. فاذا قدر لزنجى أن يبلغ من المعرفة ما يمكنه من الكتابة عن آمال قومه وآلامهم ، كان الناشرون يمتنعون عن نشر ما يكتب .. لأنهم بيض ! واذا استطاع زنجى أن يضع مسرحية عن حياة بنى جلدته ، وما يلقون من عنت ، كانت المسارح تعرض عن اخراجها .. لأن المسيطرين عليها من البيض !

بيد أن الزنوج ظلوا يجاهدون ، حتى استطاعت أعمالهم الادبية والمسرحية ، أن تفرض نفسها على صحف البيض ، ودور نشرهم ، ومسارحهم ..

والمسرحية التى نلخصها لك فى الصفحات التالية ، مثال لصراع الزنوج ـ عن طريق الادب والفن ـ لكى يصلوا بأصواتهم الى آذان الانسانية .. وقد عالج « لانجستون هيوز » فكرتها فى بادىء الامر فى « قصيدة » ، فرضت نفسها على مجلة « ساترداى ريفيو » ـ احدى المجلات الادبية الامريكية الكبرى ـ فنشرتها فى صيف ١٩٢٦ تحت عنوان « الخلاسى » ، (أى الذى يجرى فى عروقه مزيج من الدم الابيض والدم الاسود) .. وقوبلت القصيدة بضجة فى الدوائر الادبية والسياسية على السواء ، فما لبثت أن تحولت الى مسرحية ، تفضح أبشع ألوان الظلم الذى يوقعه البيض ـ فى الجنوب الامريكى ـ بالزنوج .. واضطر « لانجستون هيوز » الى أن ينشىء عددا من المسارح الزنجية ، لعرض مسرحيته ، وغيرها من مسرحيات بنى جلدته ..

واستطاعت المسرحية ـ التى ظهرت أيضا تحت عنوان « الخلاسى » Mulatto ـ أن تثير ضجة أشد مما أثارته القصيدة .. وقوبلت من النقاد وذوى الرأى باهتمام كبير ، اذ أجمعوا على أنها بمثابة « انذار » من الزنوج الى البيض فى أمريكا ، فى وقت لم تكن فيه حركة الزنوج ـ للمطالبة بالحقوق المدنية ـ قد اتخذت شكلا جديا ..

وبلغ من الاستقبال الذى استقبلت به المسرحية ، أن اضطرت مسارح (برودواى) الكبرى ـ فى سنة ١٩٣٥ ـ الى أن تتنازل عن صلفها ،

وتعرضها ، رغم كونها ((زنجية)) الكاتب ، و ((زنجية)) الموضوع ! .. وقد ظلت تعرض هناك عاما كاملا .. كما أوحى نجاحها بأن تصاغ فى قالب ((أوبرا)) باسم ((الحاجز)) ـ The Barrier ـ عرضت فى سنة ١٩٥٠ .

ولقد ترجمت ((الخلاسى)) ـ أو ((ابن الجارية)) ـ الى عدة لغات .. ومع ذلك ، فانها لم تنشر فى كتاب بلغتها الاصلية ، الانجليزية ، قبل سنة ١٩٦٣ ، عندما بدأ الادب الزنجى والمسرح الزنجى يفرضان وجودهما .. وعندما أخذت قضية الزنوج فى أمريكا تتطور الى حركة جدية عنيفة ، تنذر بحرب أهلية ..

مؤلف المسرحيـــة

• أما ((لانجستون هيوز)) ، المؤلف ، فقد ولد فى عام ١٩٠٢ ، فى مدينة (جوبلين) ، بولاية ميسورى ـ وهى أحد معاقل البيض المغالين فى العنصرية ، فى أمريكا ـ وقضى معظم أعوام صباه فى (لورنس) ، بولاية كنســاس .. واستطاع أن يظفر بقسط من العلم ، مكنه من أن يجد ((متنفسا)) لما كان يتفاعل فى أعماقه من مشاعر وآلام ، وهو يرى الملونين فى أمريكا يعاملون معاملة دون معاملة الحيوانات !

وقد بدأ ((لانجستون هيوز)) حيــاته الادبية شاعرا .. وتنقل بين (نيويورك) و (باريس) ، حيث ذاق علقم المهانة ، ومرارة الفقر .. وفى أوائل العشرينات ، بدأ اسمه يتألق كشاعر ، فى (نيويورك) .. وفى سنة ١٩٢٦ ساهم فى اصدار مجلة زنجية فصلية ـ أى تظهر كل ثلاثة أشهر ـ أطلق عليها اسم ((النار)) .. وهو اسم كان كافيا فى حد ذاته لأن يصـور ما يعتمل فى نفوس الزنوج ..

وشجعه نجاحه كشاعر ، على أن يؤلف مسرحيات .. لكنه قضى شطرا كبيرا من الثلاثينات من هذا القرن ، فى علاج مشكلة اظهار مسرحيـــاته ـ ومسرحيات بنى جلدته ـ الى النور .. وعمد فى سبيل ذلك الى انشاء عدد من المسارح للتمثيليات الزنجية !

واستطاع أن ينتصر .. واضطرت الاوساط الادبية والفنية فى أمريكا الى تقديره .. ومنذ سنوات قلائل ، توفى ((لانجستون هيوز)) بعد أن ترك لقومه ـ وللادب الانسانى عامة ـ ثروة أدبية .. وقومية !

تمهيـد

تكاد مشاهد هذه المسرحية تنحصر فى مكان واحـد ، هو قاعة الجلوس ، فى قصر سيد ضيعة ، فى ولاية (جورجيا) ـ

احـدى ولايات الجنوب الأمريكى ـ حيث يتخـذ التمييز العنصرى أبشع صورة ، فيمعن البيض فى انزال ألوان الخسف بالسود !

والحجرة واسعة ، فخمـة الأثاث ـ برغم قدم قطعه وطرازها ـ وتنتهى مؤخرتهـا بباب كبير يفضى الى المدخل الأمامى للقصر .. بينما يوجد ـ الى اليسار ـ سلم رخامى عريض ، يفضى الى الطابق الثانى .. وبجواره باب يفضى الى حجرة المائدة والمطبخ .. يقـابله ـ الى اليمين ـ باب حجرة المكتب ..

ومن هذا الباب الأخير ، يبرز ـ عند رفع الستـار ـ الكولونيل « توماس نوروود » .. رجل قوى البنيـة ـ برغم أعوام عمره الستين ـ بادى الغلظة والغطرسة ، سريع الانفعال .. ونسمعه ينادى « كورا » ، فى صبر نافد ، فتجيبه ـ من أعلم السـلم ـ زنجيـة فى حوالى الخامسة والأربعين من عمرها ..

وقبل أن تبدأ الأحداث ، يحسن بنا أن نذكر أن « كورا » تشرف على قصر الكولونيل « نوروود » ، وانها خليلته ـ أو على الأصح محظيته ـ منذ ماتت زوجته ، قبل ثلاثين عاما .. وقد أنجبت له أربعة أولاد أو خمسة ، لن نرى منهم خـلال الأحداث سوى ثلاثة ، هم : ويليم ، أكبر الأبناء ..وهو شاب بدين ، وادع ، ضعيف الشخصية ، أسمر اللون ـ وسط بين البياض والسواد ـ وله ابن صغير يلازمه .. ثم « سالى » ، وهى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، يغلب عليها البياض ، حتى ان من لا يعرفها لا يتصور أن أمهـا زنجيـة .. ثم « روبرت » ، وهو شاب فى الثامنـة عشرة من عمره ، قوى البنية ، متين البنيان ، خفيف السمرة الى درجة أنه يبدو أقرب الى الصفرة منه الى السواد .. وهو مزهو بأنه يشبه

« الكولونيل » الى حد كبير ، ويأبى أن يحمل واخوته لقب « لويس » عن أمهم ، بدلا من « نوروود » عن أبيهم .. ويرفض ما درج عليه البيض فى ولايات الجنوب الأمريكى من نبذ للأولاد الذين ينجبونهم سفاحا من الزنجيات .

الفصل الأول

وعنـــدما يبرز « نوروود » من حجرة المكتب ، تكون الساعة الثانية من بعد ظهر أحـد أيام الخريف .. ويصيح الكولونيل فى « كورا » أن تعد ابنتها للرحيل ، والا فاتها القطار .. فتجيبه بأن الفتـاة قادمة فورا ، وان أخاها « روبرت » قد وعد بأن يقلها الى المحطة ، فى السيارة « الفورد » ، ولكنه ذهب الى المدينة ، ولن يلبث أن يحضر ..

نوروود : من أذن له بالذهاب فى السيارة الى المدينة ، فى وسط النهار ؟ .. لقد اشتريت « الفورد » لتستخدم عندما آمر باستخـدامها ... **فاذا شـئت أن يستقيم العيش لابنك الأصغر العنيد هذا ، فيحسن به أن يصغى لأوامرى . انه لا يزيد على أى بغل أسود فى هـذه الضيعة .. وعليه أن يعمل كالآخرين .** ولست أقبل مثل هذا التصرف من شخص تحت امرتى .. كيف ينطلق بالسيارة الى المدينة ، فى وسط النهار ، بعد أن أمرته بأن يحنى ظهره فى العمل فى زراعة القطن .. كيف يستطيع تالبوت (المشرف على الزراعة) أن يحمل السود الآخرين على العمل ، اذا كان هـذا الولد يضرب لهم أسوأ المثل ؟ .. **ألأنه ابنك ، ولأننى كنت أحمق فأرسـلته للمدرسة خمس سنوات أو ستا ، يظن أن له حقا فى الامتياز على سواه ، ويتصرف ـ منـذ عاد فى الصيف ـ وكأنه يملك المكان ؟**

وتحاول « كورا » أن تهدئه ، وهى خائفة مشفقة ، تتملق عواطفه فى ذلة الجارية ، وكأنها لم تشاطره الفراش قط ..

ولكن الكولونيل يخرسها فى كل مرة ، ليواصل غضبه .

نوروود : لن أسمح لابن زنجى لى ـ أو لك ، أو لنا ـ بأن يعصى أوامرى .. لقد أرسلته الى الحقل ليعمل ، وسيبقى فى الضيعة الى أن أسمح له بالرحيل . سأخبر « تالبوت » بأن يسوطه ، اذا دعا الأمر .. ولو لم يكن ابنك ، لذاق السوط منذ أيام .. اصعدى وعجلى برحيل « سالى » ، ولو نطقت بكلمة أخرى فلن أدع أبنتك الجميلة نصف البيضاء تسافر .. ان ابنك لم يتعلم فى الكلية سوى الوقاحة ، وسيمكث هنا ويعمل لحسابى فترة ، قبل أن يعود الى أية مدرسة ..

كورا : أجل يا سيدى الكولونيل توم . **(فى تردد)** ولكنه صغير يا سيدى ، وقد انهار حين قلت ـ فى الأسبوع الماضى ـ انه لن يعود للكلية !

ويرمقها الكولونيل بنظرة آمرة ، فتمسك عن الكلام ، ثم تعود فترجوه ـ فى تلطف ـ ان لا يستسلم للغضب ، اشفاقا على صحته .. ولكنه يصرخ فيها أن تصعد ، وأن ترسل « سالى » لتودعه .. ويروح يذرع المكان فى انفعال ، ثم يجلس فى مقعد وهو يزمجر ، ويدق جرس الخدم فى عنف .. وسرعان ما يقبل « سام » ـ وهو عبد شيخ يقوم بخدمة الكولونيل ـ معتذرا عن تأخره بأنه كان ينقل حقائب « سالى » ..

نوروود (غاضبا) : الزنوج يخدمون الزنوج ، ولا أجد من يخدمنى فى بيتى .. أحضر لى ويسكى وصودا ، وثلجا فى كوب !

سام : سمعا يا سيدى . **(يتراجع بظهره)** عفوا ، ولكن .. طلبت كورا أن أسألك اذا كنت تسمح بانزال الحقيبة القديمة ـ التى أعطيتها لسالى ـ خلال الباب الأمامى ، اذ لم نستطع انزالها على السلم الخلفى الضيق .

نوروود (مغضبا) : لن تلبثوا أن تطلبوا الدخول والخروج

من الباب الأمامى .. ان الزنوج يزدادون جرأة فى هذا الجزء من البلاد .. لا تخرج الحقيبة من الباب الأمامى !

سام (فى خبث وكيد) : لقد رأيت روبرت يستخدم الباب الأمامى ..

نوروود : رأيته ؟ .. سأكسر عنقه اذا فاجأته !

وتهبط سالى فى استحياء ، وتقترب من أبيها .. وتبدو بشرتها بيضاء ، وان كانت قسماتها زنجية .. ويرمقها الكولونيل دون أن يتكلم ، فتخطو فى خوف ، وتشكره على سماحه بعودتها الى المدرسة ..

سالى (وكأنها تلقى خطابا) : انك جد كريم معنا معشر الملونين ، وأمى تقول انك خير رجل أبيض فى جورجيا .. **ولقد كنت كريما مع أولادك .. أقصد معنا . نحن الصغار الملونين ، فسمحت لأختى ولى بالذهاب الى المدرسة .. وفى العام القادم ، سأذهب الى مدرسة المعلمات .. أتسمح بهذا يا كولونيل توم ؟**

نوروود : اعتدلى فى وقوفك .. أراك كبرت . هل يعلمونك فى المدرسة أن تكونى حسنة الأخلاق : وأن لا تخافى العمل ، وأن تحترمى البيض ؟

سالى : أجل .. وقد علمونى الطهو والحياكة كذلك .

نوروود : لقد جعلت هذه المدرسة من أختك طاهية ماهرة .. وتقول « كورا » انها تعمل الآن بفندق فى شيكاغو ، فيحسن أن تلحقى بها فى الشمال بعد عام أو اثنين .. ستكونين قد أصبحت امرأة نامية ، ولا يليق وجودك هنا .

سالى (متراجعة ، مأخوذة) : ولكنى أريد الاقامة مع أمى ، والتدريس فى المدرسة الخاوية هنا ، فهى لم تحظ بمعلمة منذ خمس سنوات ..

نوروود : لا تطمعى فى هذا .. لن يكون للمدرسة معلمة ،

فالقطن يعلم أبناء الزنوج ما فيه الكفـــاية .. انما أحضرت معلمة للمدرسة يوما ، لسبب واحد ، هو تعليم أولاد « كورا » .. لا أدرى لماذا فعلت ذلك ، فما من أحـد من البيض - فى هذه البقـاع - فعل هذا ! .. **أحسبنى لم أستسغ أن أرى أولاد « كورا » يعملون هنا ، راسفين فى الجهل ، كبقية هؤلاء الزنوج التافهين .. أو لعلى لم أشأ أن يضع « تالبوت » عينه على البنتين .. ويسرنى انك وبيرتا اتجهتما اتجاها سليما .. ولقد حاولت أن أساعد أخويكما كذلك ، ولكن « وليم » ثقيل العقل كالثـور ، وان كان صالحــا للعمــل .. أما ذلك الـ « روبرت » فوقح ، صلب الرأس ، أصفر اللـــون .. وسأقصم عنقه يوما ، أو أسلط عليه « تالبوت » !**

ويستولى الجزع على الفتاة ، فتتوسل اليـه ألا يضع أخاها تحت رحمة « تالبوت » ، ناظر الزراعة الأبيض ، الذى يسوم الزنوج العذاب ..

نوروود : أتملين على ما أفعل ؟ **(فى صرامـة)** سـأصفعك بظهر يدى اذا لم تخرسى ! **(يسمع صوت السيارة)** ها هوذا « بيرت » . سيقلك للمحطة ، ويحسن - خلال الطريق - أن ترشديه .. وقولى له اننى أريده بمجرد عودته !

وتدخل « كورا » حاملة حزمـــة من قماش ومظلة .. وبينما تستحث الفتاة على الرحيل ، تفد سـيارة أخرى ، فتقول « كورا » للكولونيل ان صديقه « هيدجنز » - وهو من رجال السياسة فى المقاطعـــة - قادم لزيارته .. وتدفع ابنتها نحو الباب الأيسر ، لتغادر القصر من باب الخدم ، بينما تسرع فتفتح الباب الأمامى للزائر ..

ويدخل « هيدجنز » ملقيا بثقل جسمه البدين على سائق سيارته « مـوز » الزنجى ، الذى يســاعده على المشى لأن « الروماتيزم » يكاد يقعده .. ويحاول الكولونيل مداعبـة

صديقه ، ولكن هذا يبدى تجهما ، ويصرف سائق سيارته .. **ثم يشرع فى الشكوى من وقاحة « ذلك الزنجى الأصفر ، ابن « كورا » » ، لأنه صادفه فى الطريق ، فلم يفسحه له ، بل تعمد أن يسبقه بالسيارة « الفورد » ، مثيرا الغبار فى وجهه !!**

ويحتقن وجه « نوروود » غضبا ، وهو يعتذر لصاحبه ..

هيدجنز : لن يبقى هذا الولد هنا طويلا ، بسبب تصرفاته هذه . لن يمكنه البيض فى البلدة من البقاء .. ولذا رأيت من واجبى أن أخبرك . ان البيض لن يحتملوه طويلا .. لقد كسروا باب سجن الشرطة أربع مرات ، لينتزعوا من ورائه زنوجا ويشنقوهم على الأشجار .. ويحسن أن تمنع فتاك الأصغر من الذهاب الى المدينة ، بعد الذى فعله هذا الصباح !

كان « بيرت » قد ذهب ليتسلم صمامات للراديو ، وصلت فى طرد باسمه ـ الى مكتب بريد البلدة ـ بحيث يدفع قيمتها قبل الاستلام ، وقد دفع القيمة ، ولكنه وجد الصمامات مهشمة داخل الطرد ، فحاول اعادتها الى عاملة البريد البيضاء ، واسترداد ما دفع ..

هيدجنز (مستأنفا سرد القصة) : وبدأ زنجيك فى الجدال ، ففزعت مس جراى ، وصرخت تستدعى بعض العاملين فى المكتب ـ وألقوا ببيرت فى الخارج . **(فى صلف)** ان هذا الـ « بيرت » فى حاجة الى ضرب مبرح ، لجداله مع امرأة بيضاء .. واثارته الغبار فى وجهى وأنا قادم .. ان هذا البغل الأصفر لا يعرف مركزه ، وهذا ذنبك أنت يا توم ، اذ أرسلته ليتعلم !

وبينما يعده « نوروود » بالويل والثبور للعبد المتمرد ، يمضى زائره فى سرد « مخالفات » الشاب المنكرة :

هيدجنز : .. انه يقود السيارة فى الشارع الرئيسى للبلدة ، ويأبى أن يقف لأى انسان ، أبيض كان أو أسود . ويأتى لمتجرى ، وما لم تلب طلباته بالسرعة التى تلبى بها

طلبات البيض ، ينصرف وهو يخبر كاتب المتجر بأن نقوده ليست أقل قيمة من نقود البيض .. **وفى الاسبوع الماضى ، قال – وهو يقف أمام متجرى – انه ليس زنجيا خالصا ، وان لقبه « نوروود » وليس « لوبس » كبقية أسرته .. وان جزءا من مزارعك سيؤول اليه عندما تموت !.. (ويستطرد ، و « نوروود » مذهول)** انك لتعلم ان هذا لا يقابل بالتسامح فى هذا الجزء من (جورجيا) ، ولا فى أى مكان آخر فى الجنوب ، فان سماع مثل هذا الكلام يفسد الزنوج الآخرين . **وكل هذه الدعاية المنطلقة من « الراديو » – عقب الحرب – عن الحرية والديموقراطية .. لماذا يأخذها الزنوج على انها لهم ؟.. يا للجنون ! انهم يتحدثون عن الحقوق المدنية !..** اننى انذرك يا نورود . يحسن أن تقصى بفلك هذا عن هنا ، اننى احدثك بهدوء ، وأنا أبصر ما وراء الحاضر .. انك تتساهل مع زنوجك .. وهاهى المقاطعة بأسرها تعانى من وقاحة زنوج يتلقون دروسا من عبيدك . والقوم متذمرون من هذا .. ولعله السبب فى عدم ترشيحك رئيسا للجنة البلدة منذ سنوات !

نورود (مهتاجا) : ربما !.. اللعنة على الزنوج !.. كل شىء هنا ينتج زنوجا ، زنوجا ، زنوجا .. ولا عجب فى أن أهل الشمال يسمون هذا الجزء « الحزام الأسود » !

ويحاولان الانتقال بالحديث الى موضوع آخر ، ولكن « نورود » يظل مهتاجا ..

هيدجنز : يحسن بك أن تتزوج ثانية يا توم ، وتحضر امرأة بيضاء ، الى هذا المكان الموبوء . بوسع امرأة بيضاء أن تساعدك فى تسيير الأمور .. لا شىء فى بيتك سوى السود . والرجل بينهم لا يلبث – فى أعماقه – أن يصبح رخوا ، متساهلا .. **فضلا عن أنك تعيش مع امرأة سوداء !.. أعرف**

أننا جميعا فعلنا مثل هذا .. وما كنت أعرف أن بوسع المرء مضاجعة امرأة بيضاء ، حتى تجاوزت سن العشرين ! ! .. وكم من فتاة سمراء أنجبتها طفلا فى شبابى . ولكن الرجل يحتاج ــ فى بيته ــ الى « زوجة » ، وليس الى امرأة سوداء !

ويسلم « نوروود » بهذا ، ولكنه يرى أن فرصة الزواج قد فاتته . ثم يتجهان بحديثهما نحو الزراعة ، والمحصولات ، والقطن .. ولا يلبثان أن يخرجا معا . وتبادر « كورا » ، فتحضر للكولونيل عصاه وقبعته . وبينما يأمرها فى خشونة بأن تستبقى « ابنها الأصغر » فى انتظاره حتى يعود ، تبدى هى اشفاقها عليه من الانسياق وراء الغضب !

***

وما أن يخرج الرجلان ، حتى تنادى « كورا » ابنها الأكبر « ويليم » ، لتريه ــ باعتزاز وزهو ــ مفرشا طرزته أخته « سالى » بيديها .. وتفطن ــ فجأة ــ الى أن « بيلى » حفيدها قد جلس فى مقعد « الكولونيل » وأخذ يتأرجح ، فتهيب به أن ينزل عنه ، لأنه مقعد الكولونيل المفضل ..

بيلى : ان الكولونيل جدى . أليس كذلك ؟ أليس هو جدى الأبيض ؟

وليم (ينتزعه عن المقعد) : سألهب جسمك بالسوط اذا لم تخرس ! .. **(ويلاحظ جزع أمه)** انك لتعرفين أننى لم أقل له هذا يا أماه .. **« بيرت » هو الذى يقول لأهل الضيعة كلها ــ منذ عودته من (اتلانتا) ــ اننا أولاد الكولونيل نوروود . ويأتى الى كوخى فيقول لبيلى وماريبيل ان لهما جدا أبيض .. انه بذلك سيثير المتاعب لأولادى .. هو نفسه تسبب فى ايذاء نفسه حين جلده الكولونيل توم بالسوط منذ عشر سنوات .. وهو الآن فى مأزق ، لا يستطيع العودة للمدرسة ، كما كان**

منتظرا لو أنه تعقل .. اننا لا نستطيع خـــداع البيض ، والكولونيل لم يحب ((بيرت)) منذ ضربه أول مرة !

كورا (مستغرقة فى الذكريات) : كلا .. ولم يحاول أن يفهمه . كان « بيرت » اذ ذاك فى السابعة من عمره .. وجرى الى الكولونيل توم ، فى حظيرة الخيل ، عندما كان الكولونيل يصطحب ثلة من كبار البيض ، لرؤية جياده .. **يا الهى ، ان هذا الطفل طائش دائما ! جرى الى الكولونيل ، وأمسك به ، وصاح فيه أمام البيض : ((كورا تقول ان الغداء جاهز يا بابا !)) .. لم يكن قد ناداه ((بابا)) من قبل قط ـ ولست أدرى من أين جاء بهذا النداء ! ـ فركله الكولونيل تحت سنابك الجياد.** وبعد انصراف البيض ضربه بلا رحمة ، حتى خلت أنه أوشك أن يقتله .. وغضب على ـ أنا الأخرى ـ عدة شهور ، قائلا اننى أعلم أولادى انه أبوهم .. كان « بيرت » ـ حتى ذلك الحادث ـ أحب الأطفال الملونين اليه !

ولكنه لم يعد يحبه ـ بعد هذا الحادث ـ فأرسله الى المدرسة ، ليغيب عن عينيه أكثر من ست سنوات .. ولولا توسلات « كورا » وتضرعاتها ، ما دعاه هذا الصيف للمجىء ..

وليم : لقد كبر خلال هذه المدة ، وازداد شبها بالكولونيل .. بل انه يرى نفسه رجلا أبيض .. انظرى ما فعل حين وصل ، ولم يكن قد رأى الكولونيل ست سنوات .. لقد بسط اليه يده ليصافحه ! .. تماما كما يفعل البيض . وأشـــاح الكولونيل عنه وابتعد .. لست ألومه ، فهو لم يعتد مثل هذه الأفعال من الملونين .. لست أدرى ما دهى « بيرت » ! .. انه يأبى أن يقول « نعم يا سيدى » ، و « كلا يا سيدى » للبيض . **سأله ((تالبوت)) فى الصباح ، عما اذا كان يعمل فى الحقل ، فأجاب : ((كلا)) ، ومضى .. واستشـــاط الأبيض غضبا ، حتى كاد الزبد الأبيض يطفح من فمه .. ولو لم يكن**

الفتى ابنك ، لأطاح برأسه .. لقد حاولت نصحه ، فضحك وقال اننا مجرد زنوج مذعورين ، أما هو فليس زنجيا .. انه ابن ((نوروود)) ، ونصف أبيض .. وسيتصرف على هذا الأساس .

وتبدى ((كورا)) جزعها وحيرتها ، اذ قرر الكولونيل أن يبقى ((بيرت)) فى الضيعة كأى زنجى ، ولا يرسله الى المدرسة ، ليريه ((حقيقة لونه)) ! .. وتبكى ((كورا)) وهى تشعر بقلة حيلتها ، وتتوجس من أن شرا قد يحدث ، فقد رأت القمر — فى المنام — مضرجا بالدم ، والطريق المحيط بالقصر ملطخا بالدم كذلك .. وما ان تسمع صوت السيارة عائدة ، حتى تهيب ب ((وليم)) أن يدعو ((بيرت)) اليها .. ويخرج ((وليم)) من الباب الأيسر ، بينما يدخل ((بيرت))من الباب الأمامى ، فيحتضن أمه ، ويطمئنها الى سفر ابنتها .. واذ يرى عينيها مخضلتين بالدموع ، يسألها عما بها ..

كورا : لماذا لا تشفق على يا بنى ؟ .. ألم أخبرك ألا تأتى من الباب الأمامى أبدا ؟ .. ما الذى أصابك أثناء وجودك بالمدرسة ؟

روبرت (فى جد تخالطه الدعابة) : أليس هذا قصر أبى ؟ . ألست ابنه ووريثه ؟

وليم (مقبلا من اليسار) : أين بيرت ؟ لم أجده .. (يراه فيسأله) كيف دخلت الى هنا ؟

روبرت (مبتسما) : ان للبيوت أبوابا أمامية .. لماذا أقيمت الأبواب الأمامية أيها الزنجى الرعديد . . **اننا — على أية حال — نصف زنوج ، وسأتصرف كما يليق بنصفى الأبيض ، لا بنصفى الأسود !**

ويحاول ((وليم)) أن ينبهه الى الأوضاع فى (جورجيا) ، والى تعسف البيض وقسوة نقمتهم ..

روبرت : سأبقى هنا فترة ، ريثما أعلم بعضكم كيف يفكرون مثلى .. وحتى يضيق الكولونيل الشيخ بوجودى .. ولكن ، لا مزيد من الانحناءات للبيض .. لن ينحنى لهم روبرت نوروود .. فى ضيعة أبيه !

وتبهت الأم لجرأته ، وتحاول أن تردعه .. ويمضى أخوه يجادله ، ولكنه يجيب بأنه يعيش فى ولايات الشمال ، حيث رأى الزنوج متساوين مع البيض .. ولعب فى فريق كرة القدم ، وحظى بتكريم الناس .. وينصرف « وليم » وهو غاضب .. وتخلو الأم بالابن المتمرد ..

كورا : لقد اشتغلت وأذللت نفسى لأحمل الكولونيل على ابقائكم فى المدرسة .. ولكنك ، دون اخوتك ، تأتى مفعم الرأس بالعناد ، ملىء الفم بكلام فارغ لى وللبيض ولكل امرىء .. **انك لتعلم أنه ليس للملون أن يتحدث بمثل هذا الكلام الى البيض .. فما بالك بالكولونيل وبالشيطان تالبوت ؟ انهم لن يتحملوك ، ولن تدفع الثمن وحدك ، بل سيدفعه كل ملون فى هذا المكان ..**

ويتطرق الحديث الى ما جرى – فى الصباح – فى مكتب البريد ..

روبرت : ... أحسب أنه لولا « الفورد » لتكاثروا على ، وضربونى حتى الموت .. وكان هناك بعض فتية من الزنوج . لم يتحرك واحد منهم .. يا للانذال ! .. انهم منذ حضورى يرددون لى (**يقلد لهجة الزنوج**) « ليس لك أن تجادل البيض .. انك أحمق ! » .. ولعلى أحمق حقا ، ولكنى لم أعد الى هنا برغبتى ! .. ليس هنا – فيما عداك – سوى بيض يملأهم الشر ، وزنوج يملأهم الجبن ! (**فى حرارة**) أأنا زنجى يا أماه ؟ .. اننى نصف أبيض ، ووالدى الكولونيل ، أغنى رجل فى المقاطعة ، ولن أتقبل ما يلقاه الزنوج ، ولو من أبى نفسه ! ..

أيظن أننى سأعمل فى الحقل ، تحت الشمس ، و « تالبوت » فوق رأسى وكأننى من العبيد الذين كانوا يساقون الى العمل مغلولين بسلسلة ؟ .. اننى « نوروود » ولست عامل حقل زنجيا !

وتحاول أمه أن تثنيه عن عنـــاده .. لكم تضرعت الى الكولونيل لكى يرسله للدراسة ، ولكن الدراسة لم تعلمه سوى أفكار لا مجال لها فى ولاية (جورجيا) ..

كورا : لسنا فى الشمال ، حيث تعيش أختك الكبرى كالبيض .. **انها لا تعمل فى مطبخ بأحد الفنادق ، كما يظن الكولونيل ، وانما هى تعمل على الآلة الكاتبة . وكذلك تدرس « سالى » الآلة الكاتبة لتلحق بها ، ولكن أباك لا يعلم ، لأن المفروض أن لا تتعلم الزنجيات سوى الطهو والعمل الشاق ..** اننى أعمل فى هـذا القصر طيلة عمرى ، وعندما ماتت زوجة الكولونيل ، جئت للاقامة وأنجبتكم .. ولقد أكرمنى الكولونيل وسمح بأن تناموا هنا معى وأنتم صغار ، وأرسلكم للمدرسة .. ما من أبيض فى هذه المقاطعة يفعل هذا .. اذا عاد الكولونيل – بعد قليل – وتحدث اليك ، فكن كما ينبغى ، وكلمه بأدب الملونين ، فأنت لست أبيض ..

روبرت (فى غضب) : ولست أسود كذلك .. تأملينى ! ألا ترييننى أشبه أبى ، ألست صافى اللون مثله ؟ ألست أشهب العينين مثله ؟ **(ينبعث من الخارج صوت سيارة)** .

كورا (مضطربة) : أسرع يا بنى ! تعال الى المطبخ !

روبرت : لن ألوذ بالمطبخ . أليس هذا بيتنا ؟

وتسرع الى الباب الأيسر وهى تهيب به أن يتبعها ، ولكنه يقترب من الباب الأمامى .. ويدخـــل الكولونيل ، فيكاد يصطدم به ، ويقف برهة يحملق فيه مأخوذا ، بينما تلتصق « كورا » بالباب الأيسر .

الكولونيل (مشيرا لباب الخدم) : اخرج من هنا !
روبرت (فى شبه ابتسام) : ألست تريد أن تتحدث الى ؟
لن أخرج من هذا الباب !

يرفع الكولونيل عصاه ، فيصمد الفتى ، ويشد قامته ، بينما يشحب وجه الكولونيل ، ويهاجمه فى كبرياء .. ثم ترتعش يده ، ويحتبس صوته وهو يأمره بالخروج .. وفى شمم يتجه الفتى الى الباب الأمامى ويخرج ، بينما يسرع الكولونيل — فى هياج — الى خزانة صغيرة ، يتناول منها مسدسا ، ويتجه نحو الباب الأمامى ، ولكن « كورا » تلحق به وتمسك بذراعه ..

كورا : انه ابنك يا توم ! **(تجثو ببطء على ركبتيها)** تذكر .. انه ابننا !

الفصل الثانى

المشهد الأول

نفس المنظر السابق ، وقد بدا « سام » — خادم الكولونيل الخاص — خارجا من باب حجرة المكتب ، فيقف قليلا ، ليؤكد للكولونيل أنه سيستحث « كورا » على احضار « روبرت » .. ويخلو المسرح فترة .. ومن الخارج يتناهى نباح كلب ، وغناء الزنوج وهم يعودون من الحقول ، مع غروب الشمس .. ثم تدخل « كورا » من الباب الأيسر ، يتبعها « روبرت » .

وتتلطف الأم الى ابنها ، وهى تحاول اقناعه بأن يترفق بالكولونيل ، فيعامله كما يعامله الجميع .. وتذكر أن الرجل رفض تناول أى طعام ، وأنه جد مستاء ..

روبرت : الساعة السادسة الآن .. لعله يريد أن أوافيه فى حجرة المكتب ؟

كورا : انك لتعلم أنه لا يسمح لزنجى سوى سام ، بدخول

هذه الحجرة .. ألا تعقل يا روبرت ؟ .. **اننى قضيت ثلاثين عاما فى هذا البيت ، ولم أدخل هذه الحجرة مرة .. قف هنا وانتظر حتى يخرج منها ، وسأصعد الى الطابق الأعلى .. فلا تحنقه بالله ! .. واثق على ما يقول ، فانى مشفقة عليك يا بنى من تصرفاتك .. لا تثر هياجه يا حبيبى ، لأننى أحبك .. ولأنك تعلم مايصيب جميع الملونين هنا ، حين ينحرف مزاجه ..**

روبرت : حسنا يا أماه ! **(فى ثورة)** كان هذا هو اليوم المحدد لسفرى للدراسة .. لماذا لم يف بوعده لى ؟

وتهيب به « كورا » أن يصمت ، وتوصيه بألا يثير الكولونيل ، ثم تصعد السلم .. وتدق ساعة مؤذنة بالربع بعد السادسة .. وتختنق الشمس أمام زحف الليل .. ويفتح باب حجرة المكتب ، ويقبل « نوروود » منحنى القامة ، شاحب الوجه .. **ثم يرى الفتى فيشد قامته فجـأة ، وتقفز الى وجهه معالم السيطرة والسـيادة ، ويخطو نحوه .. ويقف الفتى بين الخوف والتحدى .** ثم يعود « الرجل الأبيض » الى مقعد بجوار منضدة ، الى اليمين ، فيجلس ، ويشعل سيجارا ، ثم يتكلم بلهجة تجمع بين التسامح والازدراء :

نوروود : لا أريد أن أضربك كما ضربتك وأنت طفل ، فقد أقتلك اذا لمستك مرة أخرى .. اننى أدير هذه الضيعة منذ خمس وثلاثين سنة ، لم أضطر خلالها الى أن أضرب زنجيـا فى عمرك .. كما أننى لم أضرب أحدا من أولاد « كورا » سواك ، فالباقون من العقل بحيث يتحاشون أن يرونى ، واذا خاطبونى تأدبوا كما ينبغى .. أبدا لم أعان متاعب من الزنوج ، فهم يفعلون ما أقول ، أو ما يقول « تالبوت » . وأنا أعطيهم فرصة ، فاذا جاء المحصول جيدا ، كافأتهم ، وتركت لهم حرية التصرف فى نقودهم كما يحلو لهم . كذلك أتيح لأولاد « كورا » فرصا لم يحظ بمثلها أحد من الملونين هنا .. أرسلتكم الى المدرسة ،

وتركت « بيرتا » ترحل الى الشمال حين أتمت دراستها ، وكذلك ستفعل « سالى »،ومنحت أخاك « وليم » البيت الذى يقيم فيه ، عندما تزوج ، كما أعطيه أجرا عن عمله ، وأساعده عندما يحتاج . وأرسلك المكلية لتتعلم .. وكنت أعتزم اعادتك اليها ، ولكنى لن أنفق على أسود — ولا على أبيض ، لو كان لى ابن أبيض — يتصرف كما تتصرف . اننى أريد أن أعرف ماذا دهاك ! .. **ان من عادتى أن أقول للناس ما يجب أن يفعلوا ، وليس أن أناقش أمورهم .. هل جننت ؟ .. اذا كان ذلك ، أمرت بحبسك ، واذا لم تكن جننت ، فعليك أن تغير مسلكك ، والا فلن يكون مقامك هنا مأمونا ، وأنت تعرف** .. فليس لك أن تصب وقاحتك على نســاء البيض ، وأن توقف السيارة أمام بابى ، وأن تقودها بأقصى سرعة ، فى كل مكان ، على هواك .. والآن ، تكلم ، ولكن .. تكلم كما ينبغى ! .. أعنى كما يجب على زنجى أن يخاطب أبيض !

روبرت : ولكنى لست زنجيا ياكولونيل توم . **اننى ابنك !**

نوروود (فى استخذاء) : انك ابن كورا .

روبرت : ان النساء لا ينجبن أطفالا من تلقاء أنفسهن .

نوروود : الزنجيات لا يعرفن آباء أطفالهن . **فأنت ابن سفاح !**

ويضم روبرت قبضته ، فيتناول الكولونيل مسدسه ، وتهب الريح ، وتتراقص الظلال .

روبرت : لقد سمعت هذا من قبل . سمعته من زنوج .. ومن بيض . والان أسمعه منك ! **(ببطء) انك تتكلم عن أمى ..** وأنت والد أبنائها . (بغضب) كيف تسنى أن أشبهك لو لم تكن أبى ؟

نوروود : لا ترفع صوتك فى وجهى ، فأنا أسمعك **(نصف مبتسم)** كيف تسنى أن يكون لونك أصفر ، ومرفقاك أجربين ؟

كيف تسمنى أن يلقوا بك اليوم خارج مكتب البريد جزاء حديثك مع امرأة بيضاء ؟

روبرت : لم يكن لهم حق فى القائى .. تماما كما لم يكن لك حق فى أن ترفع عصاك اليوم ، وأنا واقف عند باب هذا البيت ، الذى تقيم فيه بينما أنام فى كوخ مع عمال الحقل . (ببطء) ولكن أمى تنام معك !

نوروود : ألا يروق لك ذلك ؟.. ماذا تملك أن تفعل ؟

روبرت (بعد فترة صمت) : أود أن أقتل جميع البيض فى الدنيا !

نوروود (وقد بدأ ينفعل) : الزنوج أمثالك يشنقون على الشجر . ألست تحب عنصرك ؟.. ومع ذلك ، لاتحب البيض أيضا ؟.. من الواضح أنك لا تحبنى !

روبرت (فى وداعة الطفل) : كنت أحبك ، عندما علمت ــ لأول مرة ــ أنك أبى .. عندما كنت غلاما ، قبل أن تضربنى تحت سنابك الجياد .

نوروود (ويده على مسدسه) : حقا ؟.. أينادينى زنجى « بابا » ؟ كان خليقا بى أن أقصم عنقك فى تلك المرة الأولى .. كما كان خليقا بى أن أهشم رأسك اليوم !.. كان يجب أن أتخلص منك قبل هذا ، ولكنك ابن كورا ، وقد حاولت أن أساعدك . **(فى غضب)** عاملتك بتساهل ، وأرسلتك للمدرسة ، ودفعت نفقات تعليمك . ولكنك الليلة ستغرب عن هذا المكان .. أبرح هذه المقاطعة !.. غادر هذه الولاية !.. سيأتى « تالبوت » الليلة ليحدثنى عن القطن ، وسأخبره بأن يتولى اقصاءك . **(يشير له نحو الباب الأيسر لينصرف)** قل لسام ــ وأنت خارج ــ أن يأتى ، ليشعل الضوء .

روبرت (متوافحا) : دق له الجرس ، فلن أخرج من باب المطبخ . **(يتجه نحو الباب الأمامى)** لست خادمك ، ولن

تملى على ارادتك ، ولن تخبر تالبوت بأن يطردنى كأى عامل فى الحقل لم تعد لك به حاجة .

نوروود (يقفز عن مقعده ، ويعترض طريق ابنه للباب الأمامى ، والمسدس فى يده) : يا لك من ابن سفاح أسود !

ويتقدم « روبرت » نحوه ، فيلوى ذراعه حتى يسقط المسدس على الأرض . ويتراجع الشيخ فى ألم وهياج ، بينما يضحك « روبرت » ، ويقبض على عنقه ، قائلا : « لماذا لا تطلق الرصاص يا أبى ؟ » .. **ويناضل « نوروود » ، ويلهث ثم يشهق مختنقا ، والفتى يشدد الضغط على عنقه ، وهو لا يزال يضحك .. وتقبل « كورا » – من رأس السلم – فتصرخ ، وتسرع اليهما .. واذ ذاك ، يلقى « روبرت » بالكولونيل عند قدميها ، جثة هامدة ، فوق شريط كاللهب من ضوء الشمس الغاربة ..**

روبرت (مهتاجا) : لماذا لم يطلق الرصاص يا أماه ؟.. لم يكن يريد أن أعيش . **(ضاحكا)** كان السيد .. الرجل الأبيض .. فلماذا لم يطلق الرصاص ؟

وتنكفىء « كورا » على جثة الكولونيل تناديه ، وتذكر الفتى بأنه أبوه ..

روبرت : لقد مات .. مات الرجل الأبيض ! مات أبى ! **(يضحك)** ولكنى أعيش .. والزنوج يعيشون ! **(يلتقط المسدس)** هذا ما أراد أن يقتلنى به ، ولكنه مات .. سأستخدمه ضد كل البيض فى الدنيا ، لأنهم لن يلبثوا أن يقبلوا ليقتصوا منى .

وتنهض « كورا » – وقد انتبهت الى الخطر الذى يهدد ابنها – فتستحثه على الاسراع بالهرب ، وعلى أن يخترق الحقول ، الى منطقة المستنقعات ، فان الكلاب لا تستطيع أن تشم الأثر فى الماء .

روبرت : لن أهرب من بيت أبى ، ولكنى سأخرج من الباب الأمامى ، على مهل . فاذا وجدتهم سيلحقون بى قبل أن أبلغ المستنقع ، فسأعود يا أماه (**بشمم وكبرياء**) وسأدعهم يأخذوننى من بيت أبى .. اذا استطاعوا .

وتستحثه أمه على الاسراع بالهرب ، فيفتح الباب الأمامى بهدوء ، ويشد قامته وهو يقف فى أشعة الشمس المحتقنة ، وكأنه فى جدول من الدم !.. وفجأة ، تفطن الأم الى أن « تالبوت » قادم مع أمين المخازن ، فتصعق ، وتتأوه ..

ويمضى الفتى ، بينما يقبل الرجلان يسألان « كورا » عن الكولونيل .. ولكن لسانها المعقود لا يجيب ، فيزيحها « تالبوت » عن الطريق ، لتلتصق بالحائط ، ويتقدم فيضىء المكان .. ثم يجمد الرجلان جزعا ، اذ يريان جثة الكولونيل .. ويسرعان لفحصها ، فيتبينان أن الرجل مات .

أمين المخازن (ينهض منفعلا) : ذلك الزنجى الذى رأيناه خارجا !.. ابن كورا من السفاح !

تالبوت (يندفع نحو الباب) : سنقبض عليه .. التليفون فى حجرة المكتب ، فاتصل برئيس الأمن (الشريف) ، واستحث البيض ليطاردوا الزنجى !

ويندفع أمين المخازن الى حجرة المكتب ، ويروى القصة تليفونيا لرئيس الأمن ، ويحضه على دعوة كل البيض ، لينطلقوا نحو منطقة المستنقعات ، ومعهم كلاب المطاردة .. بينما يحاول « تالبوت » أن يحمل « كورا » على الكلام ، ثم يدفعها .. وينطلق الرجلان الى الخارج ، ويعود الظلام للحجرة ، و « كورا » جامدة فى وقفتها ..

كورا : لن يستطيع ابنى الوصول الى المستنقع ، فقد

استنفرا البيض الى هناك . ومن ثم فسيعود الى البيت .. لن تصل أيديهم اليه .. سأخبئه فى حجرتى .. سأعد له مخبأ تحت أرض الحجرة ، تحت سريرى .. **(وتتحول الى الجثة المسجاة)** أتسمعنى يا كولونيل توم ؟ ابننا يحاول الهرب . **(فى نقمة)** أنت قلت انه ابنى .. ابنى من السفاح .. ولكنه ابنك كذلك .. وهو يهرب فى الظلام من قومك ، من البيض .. **(فى ضراعة)** لماذا لا تنهض وتوقفهم ؟ انه ابنك .. عيناه كعينيك ، طوله كطولك ، شممه وكبرياؤه كشممك وكبريائك .. **(فى لهجة آمرة)** لماذا لا تنهض وتوقفهم ؟.. أتقول انه ليس ابنك ؟ ابنى الأصغر من السفاح ؟ **(بفخر وأنفة)** أجل ، هو ابنى . ولكن لا تقل انه ابن سفاح . لا تضع يديك البيضاوين عليه .. انه أبنى ، ولن يمسه أحد من البيض . سأعد له مخبأ تحت سريرى ، فلا تأت لمخدعى وهو هناك . **لا تأت لمخدعى بعد اليوم ! اننى أدعوك فتظل راقدا هنا ، وكنت تدعونى – فى بهيم الليل – لتضاجعنى ، فأفتح لك ذراعى !.. ان ابننا الأصغر يجرى فى الظلام .. يجرى منك أنت الآخر .. انه ابنك ، ويهرب منك !.. والكلاب والمسدسات مع قومك ، و ((تالبوت)) وراءه بحبل ليشنقه** .. ما أحسبك نائما يا كولونيل توم . انك تخدعنى . ما كنت ساكنا هكذا فى أى يوم .. **(فى تقريع)** ابنى يجرى خلال الحقول فى الظلام .. كولونيل توماس نوروود ، انك تطارد ابنى المسكين ، الذى لا حول له ولا سند .. تطارده فى الظلام لتشنقه .. **(تتراجع بظهرها نحو السلم ، وهى ترمق الجثة)** اللعنة عليك يا توماس نوروود !.. لعنة الله عليك !

المشهد الثانى

نفس المنظر السابق ، بعد ساعة ، وقد هبط الظلام ..

و « الحانوتى » يتكلم مع الخادم « سـام » عند الباب الخارجى ، وصيحات البيض المنطلقين فى المطاردة تتناهى من وراء المنظر ..

الحانوتى : لم يكن للكولونيل أقارب ، فيما أعرف .. هل كل شىء من أمواله هنا فى حرز مكين .. ما أسوأ ألا يكون هنا أناس من البيض يرعون أشياءه ، اذ انطلق البيض جميعا فى المطاردة .. أحسبهم سيظفرون بذلك الزنجى ويشنقونه قبل الساعة العاشرة !.. وأين تلك الزنجيـة التى كان الكولونيل يعيش معها ؟.. أود أن أراها . احملها على أن تهبط الى هنا !

ويصعد « سام » ، ولا يلبث أن يعود و « كورا » خلفه .. وتظل صامتة ، لا تتكلم ، بينما يتأملها « الحانوتى » مليا ..

الحانوتى : اذن فأنت « كورا » التى أنجبت أولئك الأولاد الزنوج المتعلمين ؟.. أحسـبك سترين أحدهم ـ عندما تستيقظين فى الصباح ـ مشنوقا ، ملىء الجسم بثقوب الرصاص .. أو لعلهم سيحرقونه !

كورا (بهدوء) : ألهذا دعوتنى ؟

الحانوتى : لا تتكلمى بهذه اللهجة . لعلك تحسبين أنه لم يعد هنا من يحكمك ؟.. هات لنا شرابا قبل أن ننصرف !

كورا : لا أتلقى أوامر الا من الكولونيـل نوروود ، يا سيدى .

وتأبى أن تصدق أن الكولونيل مات ، فهى تعتقد أنه مع البيض الذين يطاردون ابنها .. ولا يلبث « الحانوتى » أن ينقل التابوت الى عربة الموتى ، وينطلق .. ويصعد « سام » ويجزع ، لاصرار « كورا » على أن الكولونيل على قيد الحياة ، فينسحب هو الآخر .. وتغلق « كورا » الباب الأمامى ،

وتسدل الستائر ، ثم تنظر الى البقعة التى كان الكولونيل مسجى فيها ..

كورا : كل الملونين يهربون منك الليلة يا كولونيل توم المسكين .. ما كان لك أن تنطلق مع الغوغاء .. اننى لأتذكر يوم شنقوا « ليوك جوردون » ، اذ أرسلت كلابك معهم ، ثم قتلت الكلاب فى الصباح التالى .. كان قلبك رقيقا ، لا يرضى عن هذا الأسلوب .. وقلت لى ــ وأنت فى فراشى ذات ليلة ــ انك تسمع نباح الكلاب وأنت نائم .. ولكنك كنت معهم يوم أحرقوا المحكمة ، حيث كان الفتى ــ الذى قيل انه احتضن فتاة بيضاء ــ حبيسا .. وها أنتذا الآن تطارد ابنى .. **(فى عجب)** رجال بيض ، ونساء ملونات ، وأولاد سفاح .. هكذا الحال فى الجنوب ، ولكن هذا كله انتهى الآن . ان لك ثلاثة اخوة سمر ، أنجبهم أبوك من الخالة « سالى ديل » .. ان لك أقارب ملونين ، ينتشرون فى المقاطعة ..

ويقبل « وليم » ، فيمكث ساكنا ، اذ يراها تجلس ، وتحدق أمامها دون أن تبصر .. ثم يخبرها بأنه فكر فى اصطحاب زوجته وولديه ، ليلوذوا بحمى الكنيسة .. ويحاول اقناعها بأن تصحبهم ..

كورا : لسوف يعود أخوك يا بنى ، ولن أكون وحدى .. لن يقبضوا عليه ، وسيعود لى ، وسأتولى حراسته .. وسيأتى الكولونيل بالتأكيد .. سيأتى وراء ابنه ! **(يحملق فيها وليم مذهولا)** اذهب يا بنى ، فأنت لم تكن يوما مثل الكولونيل أو مثل « بيرت » .. أحسب أن قسطا كبيرا من دمى انتقل اليك . فما أحببت « بيرت » يوما ، وكنت دائم الخوف من الكولونيل . انك لم تؤذ أحدا ، ولم تتمرد على أحد . وكذلك كنت أنا ، حتى الليلة ! **(تخاطب الفضاء حولها)** **لقد حاولت أن أعيش مستقيمة يا الهى !** **(بغضب)**

حاولت أن أعيش مستقيمة يا الهى ! (تطوح بذراعيها ، وكأنها تقول : ها هي ذى النتيجة !) ماذا جرى يا الهى ! انك لست معى !

ويقترب نباح الكلاب ، فينصرف « وليم » مهرعا ، خائفا .

كورا (تنحنى على البقعة التى كان الكولونيل مسجى فيها) : كولونيل توم ! اسمع ! ان بيرتا وسام ووليم وبيرت .. كل أولادك يهربون منك ، وأنت مستلق على الأرض ، ميت ! وأنت فى الخارج مع الحشد ، ميت ! وعندما تأتى ، وتصعد ، وتنام فى سريرى ، ميت ! **(تجلس وتتكلم كأنها تتذكر حلما بعيدا)** لست سوى كورا لويس المسكينة ، ياكولونيل نوروود ! فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها . **منذ ثلاثين سنة ، مددت يديك وتحسست ثديى ، وقلت : « يا لك من قطعة لحم جميلة ! سوداء وحلوة ! » وجذبتنى اليك ، ونمنا تحت الأشجار ، وأنا أسائل نفسى ، ترى هل يقدر لزوجتك أن تعرف ، عندما تعود اليها !.. وكانت أمى تقول انها أرضعتك كما أرضعتنى !.. ولكم بكيت ، ثم قلت لأمى ما جرى ، فلم تغضب كما ظننت ، بل قالت ان الرجال البيض الراقين يعنون دائما بنسائهم السوداوات ..** وان هذا أفضل من أن أتزوج من زنجى يعمل طيلة عمره فى حقول القطن وقصب السكر **(صيحات الحشد تقترب باطراد ، ونباح الكلاب يزداد وضوحا)** وكنت سعيدة ، لأننى أحببتك . وعندما ماتت زوجتك **(فى لوم)** التى لم تنجب لك طفلا واحدا ، أدركت انك تريدنى . كنت اذ ذاك حبلى بأول أولادنا ـ « وليم » ـ وجئت أدبر شئون بيتك وأنظفه .. وشيئا فشيئا ، لم تشأ أن أفعل شيئا ، وأصبح الزنوج الآخرون يخدمونك ويخدموننى .. ولم أعد أفعل شيئا سوى الحياكة ـ من آن

لآخر – وحفظ فواكه الصيف ، واعداد فطائر وكعك عيد ميلادك .. **وكنت دائما على استعداد ، حين تأتينى فى الليل .. وأنجبنا أولئـك الأطفال معا .. ولكن « روبرت » كان أقربهم اليك ، وأشبههم بك . كان مليحا ، رقيقا ، صلب الراس ، غريبا ، عنيدا ، متكبرا مثلك .. وكان أحبهم الى قلبى ، لأنه كان محتاجا الى الحب** .. وكان يريد أن يدعوك « بابا » ! ولقد حاولت أن أردعه ، ولكنه لم يرتدع .. وضربته أنت يا كولونيل توماس نوروود ، فتغلغل الضرب فى قلبه .. وفى هذا الصيف ، أصبح يشبهك كما عرفتك – فى البداية – تحت الشجر !.. وما كنت أملك سوى أن أحبه ، كما كنت أحبك !.. ولكنه كان يكرهك !.. لقد ورث عنك طباعك ، ومع ذلك فانك ضربته .. **وبعد أن ضربته مت ! وكنت تعيش ميتا طيلة هذه السنوات الطويلة !.. وعندما سألتك الليلة أن تساعدنى ، كنت ميتا من زمن بعيد .. و « بيرت » يقف فوق جثمانك حيا ، حيا !.. لماذا كنت تكرهه ؟ لماذا كنت تريد قتله ؟.. ولكنك لن تقتله ! سيأتى الى هنا أولا ، سيأتى لى .. انه عائد لى !**

ويشتد الضجيج فى الخارج ، وتنبعث أضواء السيارات خلال النـوافذ مخترقة الستائر ، وتظل كورا جالسـة ، مترقبة .. وتتعالى أصوات من الخارج ، تدعو الى محاصرة البيت والأشجار المحيطة به .. ثم يصرخ صوت بأن الفتى الزنجى يهرع الى الباب .. وينبعث صوت طلقات نارية . ويفتـح الباب فجـأة ، ويدخل « روبرت » وهو يرد على الطلقات بمثلها .. ويسـمع تهشم زجاج ، وصرخات ، وسباب .. وتقفز « كورا » فتحكم رتاج الباب ..

كورا (مستندة الى الباب) : كنت فى انتظارك يا حبيبى .. مخبأك معد ، تحت سريرى .. شققت لك فى الخشب فجوة ، ولن يعثروا عليك .. أسرع ، قبل أن يأتى أبوك !

روبرت (لاهثا) : الوقت لا يتسع للاختباء . سيقتحمون البيت **(أصوات طرقات وزجاج يتهشم)** من الأبواب .. من النوافذ .. سيأتون من كل مكان . ولم تبق سوى رصاصة واحدة يا أمى .. رصاصة لى !

كورا : ادخرها لنفسك . اصعد ، ونم على فراشى ، واسترح !

روبرت (يصعد السلم ببطء) : عمى مساء يا أماه !.. لقد تعبت من الجرى ، فقد ظلوا يطاردوننى ساعات !

وتقف « كورا » فى أسفل السلم . وبينما « روبرت » فى أعلاه ، يتداعى الباب الأمامى تحت ضغط البيض المهتاجين ، وفى مقدمتهم « تالبوت » .

تالبوت : أين ابن السفاح الأصغر .. ابنك . أفى الطابق الأعلى هو ؟

كورا : نعم . سينام ، فالزموا الهدوء ، وانتظروا !

وتسد الطريق الى السلم بذراعيها ، ولكنهم يندفعون .. **وينبعث من الطابق الأعلى دوى طلق نارى ، فترسل « كورا » اشارة حب ووداع ، نحو حجرتها ..** ويتدفق الناس فى المكان ، صائحين ، صارخين .. وفجأة ، يبدو « تالبوت » عند رأس السلم ، فيسود الجميع صمت مترقب ..

تالبوت : فاتت الفرصة يا رجال .. لقد تأخرنا قليلا !

وتنبعث من القوم زفرة استياء .. ويهبط « تالبوت » السلم ، فيسير الى « كورا » ، ويصفعها على وجهها ، صفعة واحدة . ولكنها لا تتحرك ، وكأنها مطمئنة الى أنه لم يعد فى وسع يد بشرية أن تنال منها ..

« وتهبط الستار »

(بقية المنشور فى صفحة ٨)

جديدة بدأت تنشر له رواياته التالية مسلسلة قبل جمعها فى كتاب ، فظهرت له : مغامرات القبطان « هاتيرا » (١٨٦٤) ، ثم رحلة الى جوف الارض (١٨٦٤) ، تليها « من الارض الى القمر : رحلة مباشرة فى ٩٧ ساعة و ٢٠ دقيقة » (١٨٦٥) .

● ثم أنشأ « فيرن » سلسلة (رحلات خارقة للمألوف) ـ التى استمرت أربعين عاما ـ فنشر فيها على التوالى : أبناء القبطان جرانت (١٨٦٧) ، ٢٠ ألف فرسخ تحت الماء (١٨٦٩) ، حول العالم فى ٨٠ يوما (١٨٧٣) ، الجزيرة الغامضة (١٨٧٤) ، ميشيل ستروجوف (١٨٧٦) ، الهند السوداء (١٨٧٧) ، قبطان فى سن ١٥ (١٨٧٨) ، مغامرات صينى ، ٥٠٠ مليون بيجوم (١٨٧٩) ، الشعاع الأخضر (١٨٨٢) ، كيريبان العنيد (١٨٨٣) ، الحريق (١٨٨٤) ، ماتيا ساندورف (١٨٨٥) ، « روبور » الفاتح (١٨٨٦) ، أجازة لعامين (١٨٨٨) ، القصر (١٨٩٢) ، الجزيرة (١٨٩٥) ، مواجهة الراية (١٨٩٦) ، « أورينوك » الرائع (١٨٩٨) ، مأساة فى ليفونيا ، سيد العالم (١٩٠٤) . وفيما عدا هذه المؤلفات الأكثر شهرة ، كتب « فيرن » عشرات الكتب الأخرى التى لا يتسع المجال لسرد عناوينها .

● وكان فيرن ـ بعد نجاحه ـ قد انتقل فى عام ١٨٦٦ الى منزل فاخر فى (كروتوى) ، بحوض « السوم » ، كما اشترى سفينة للصيد أطلق عليها اسم « سان ميشيل » ، تيمنا باسم ابنه ، ووصفها بأنها « مكتبه العائم » ، وعلى ظهرها كتب قصته (٢٠ الف فرسخ تحت الماء) . وفى عام ١٨٦٧ سافر فى رحلة الى الولايات المتحدة الامريكية . وفى عام ١٨٧٤ اشترى « يختا » فاخرا (سان ميشيل الثانى) ، وبلغ قمة مجده وثرائه خلال السنوات ١٨٧٢ ـ ١٨٨٦ ، فاشترى يختا آخر (سان ميشيل الثالث) . وفى ١٨٧٨ التقى بالشاب أريستيد بريان (رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) ، فسافرا معا فى رحلات عديدة فى البحار والأقطار الأوربية . وكان فيرن قد فقد أباه فى عام ١٨٧١ ، وأمه فى ١٨٨٧ ، وشقيقه بول فى ١٨٩٧ . وفى ١٩٠٢ أصيب بالمياه الزرقاء فى عينيه . ومن مآسى حياته أصابته فى عام ١٨٨٦ برصاصتين من قريب له ذى لوثة ، وعلى أثر شفائه هجر باريس وعاش بقية حياته فى (أميين) حيث فاز فى انتخابات المجلس البلدى ، فتقاسمته أعباء التأليف والادارة المحلية ، خلال أعوامه التالية ، حتى أدركته منيته فى داره بالمدينة ، فى ٢٤ مارس ١٩٠٥ ، عن ٧٧ عاما .

ترقب فى اول مارس ، فى العدد الجديد الفاخر من

مطبوعات كتابى

هذه القصة الانسانية الرائعة

أقوى ما كتب الروائى العـــالمى ((ستيفان زفايج)) :

ترجمة : حلمى مراد

((.. كان ضباب الفجر ما يزال يغطى مبانى البلدة ، حين خرجنا فى اليوم التالى لنقوم بجولة الصباح ، وفيما نحن نركض بجيادنا بأقصى سرعتها ، ونسيم البكور الندى يحمل الى أنفاسنا عطر الحقول المزدهرة ، فنعب منه جرعات تملأ صدورنا انتعاشا وحبورا ، ودماء الشباب الدافئة تتدفق فى أجسامنا النابضة بالحياة .. لاحت لنا من بعيد اسوار القصر البيضـاء ، وللفور طعن قلبى احساس مباغت بالرثاء للفتاة ، المحرومة من نشوة الصحة والحرية ، والفرحة بقوة الشباب !.. خيل الى انه قد يجرح شعورها أن ترانى هكذا منطلقا كالسهم المارق أو الطائر السعيد .. وشعرت بالخجل من سعادتى الجسمانية ، كما يخجل المرء من امتياز لا يستحقه !.. لكن ذهنى تصدى لعاطفتى بالحجة المقنعة والمنطق السليم ، فلم ألبث أن تبينت سخافة اذلال النفس على هذه الصورة . أدركت أنه لا جدوى فى أن ينـكر الانسان على نفسه متعة ما ، لا لشىء الا لان غيره محروم منها ، ويأبى على نفسه السعادة ، لأن غيره شقى ! .. ففى الوقت الذى نضحك فيه ، ونتبادل النكات ، يوجد أناس - فى أماكن مختلفة من العالم - راقدين على فراش الموت .. وآخرون ، خلف ألف نافذة ونافذة ، يعانون البؤس ، أو يتضورون جوعا .. وهناك المستشفيات المليئة بالمرضى والجرحى .. والسجون العامرة بالمعذبين .. والمصانع والمناجم والمكاتب التى يشقى فيها الملايين من البشر ، فى كل ساعة من ساعات النهار .. ولن يخفف من شقاء انسان واحد أن يشقى انسان آخر نفسه بنفسه ، بغير مبرر !.. بل لو حاول شخص أن يفكر فى مآسى الغير ، ويصور لنفسه صنوف البؤس التى تنطوى عليها الدنيا فى كل وقت ، لاستعصى عليه النوم ، وماتت البسمات على شفتيه الى الابد !))

((وفجأة .. فتح الباب ، ودلفت منه لفحة هواء ، أعقبتها فتاة جميلة سمراء ، ذات عينين لوزيتين ، ترتدى ثوبا أنيقا .. يا الله ! ما أجمل رقعتى القطيفة السمراء المدعوتين عينيها ! كانتا مثل حبات ((البن)) ، وحين تضحك كانتا كأنما تحدثان صوت البن أثناء ((تحميصه)) على النار !.. وكانت لها أذنان صغيرتان تكادان تكونان شفافتين ، تختبآن تحت ثروة كبيرة من الشعر الفاحم الفزير .. ولها ذراعان عاريتان ، خيل الى أن ملمسهما لابد يشبه ملمس الخوخ المقشور !))

محتويات العدد

الموضوع **الصفحة**

هدية العدد : مجلة الصغار فى ٣٢ صفحة منفصلة .

كتابى

تصدر عن الشعب

مؤسسة صحفية عربية

أخصائيون فى المطبوعات العاجلة

عضو اتحاد الصناعات

الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١

التوزيع : مكتبة دار الشعب

المطابع : قصر العينى - ت ٣١٨١٠ - ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩ دير النواس - تليفون ٨٤٤٨١٠

رئيس مجلس الإدارة السيد ابراهيم